

قطاع الثقافة

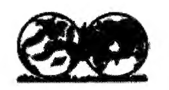
أنيس منصور

صندوقى الأسود

أنيس منصور

صندوقي الأسود

دار



رئيس مجلس الإدارة

محمد بركات



التصميم الداخلي والإخراج الفني

د. عبد الكريم محمود

صفحتنا على الفيس بوك

www.facebook.com/thakafabookstores

■ وكلاؤنا بالخارج ■

دولة الإمارات العربية

شركة الإمارات للطباعة والنشر والتوزيع

٠٠٩٧١٥٠١٤٩٩٧١٤ _ ٠٠٩٧١٤٢٦٦٠٣٣٧

السعودية ودول الخليج

سلسلة مكتبات العبيكان

٠٠٩٦٦٥٠٣٢٧٩٧١٧ _ ٠٠٩٦٦١٤١٦٠٠١٨

مكتبة جرير

٠٠٩٩٩٤٦٢٦٠٠٠ _ ٠٠٩٦٦٥٠٢١٧٧٧٠٢





كلمة أولى ...

فى كل مرة أحاول أن أكتب مذكراتى أو قصة حياتى فإننى أتوقف وأتساءل: وما فائدة ذلك عند القاريء أنا أقول وأحكى وأقرأ وأكتب فماذا استفاد؟

وفى معظم الأحيان أجيب عن هذا السؤال: ولا حاجة.. وإذا كان يريد أن يعرف فأمامه كتبى .. ولكن هل يستطيع أحد أن يقرأها كلها ليعرف من أنا.. فأنت لا تستطيع أن تنقل البحر فى زجاجات لكى تحللها وتعرف طعم ماء البحر.. كوب واحد يكفى بل أقل من كوب.. وأنت تحلل الدم والبول قليل من البول وقليل من الدم وهى تنوب عن كل الدم الموجود فى الجسم، فكتاب واحد يكفى أو كتابان، أما أكثر منه فسوف

يقرؤه المؤرخون أو النقاد، إن قرأوا ..

ولنفرض أنهم قرأوا ... فماذا؟ .

والجواب : ولا حاجة.

والسؤال: فلماذا تكتب؟.

والجواب: لأننى أريد أن أقول.

أنت لا تسأل العصفور: لماذا يصوصو، فأنا أصوصو.. وكذلك كل الكتاب، ابتداء من أبينا "هيرودوت" حتى كاتب هذه السطور..

إننى مثل فلاح يزرع حديقة.. ويرويها.. من يراها تعجبه أو لا تعجبه.. ولا أتوقف.

إن النحلة التى تفرز العسل لا تتذوقه، ولم تتعلم فى ملايين السنين أن تكف عن إفراز العسل وإذا رأيت النحلة وهى تدافع عن نفسها أخرجت كل أحشائها وماتت ولم تتعلم..

وكذلك الكاتب والشاعر والمطرب والفلاح والعامل، بل الوردة نفسها تطلق شذاها ولو لم يشمها أحد.. إن الفلاح أصبح لا يشمها ولا يحس بها، وكثيرا ما ضاق بها تماما، كما يضيق كل إنسان بعمله.

***

فى كل مرة أكتب عن حياتى .. وقد حاولت ذلك كثيرا فى

كتبي.. كنت أتوقف عن الحديث عن السنوات الأولى عن أبى وأمى ، لا أجد مبررا للكتابة عنهما.. مع أن هذا ضروري، جدا والسبب أنهما قد أثرا فى تكوينى سلبا أو إيجابا، إنه أثر قوي.. ربما كانت أمى هى الأكثر أثرا، لأنها الأكثر حضورا فى حياتي..

وهنا يتوقف القلم عن الكتابة... لماذا؟ .

انقطعت الحرارة.. جف القلم.. انسدت الأبواب فى وجهي.. وخرست الدنيا.. اختفت المعانى فلم تعد لها ضرورة..أظلم نفسي؟!

*****

الكلمة الأولى بخط أنيس منصور

سألني مرة أحد الأدباء أن ألخص خبرات أو قصة

حياتي في كلمات. وأنا أحاول: ولا فائدة ولما

عند الخاتمة؟ أنا أقول. وأفكر. وأقرأ. وأكتب فماذا

استفدت؟

أجيب عن السؤال

في معظم الأحيان: ولا حاجة.. ولو أنني

[illegible] أن أعرف ما لم يكن. ولكن علي أن يقنع

أحدا [illegible] لا [illegible] .. فإنني لا أستطيع

أن أنقل إليهم تجارب كلها مشاكل وكوارث [illegible]

من الكبر.. كوارث [illegible] بل أكثر من كوارث..

إنها مثل الحب والسهول.. تتكرر [illegible]

من الحب وتتعذب من كل الحب الموجود [illegible]

[illegible] أكثر منه

فيها [illegible] أو النقاد.. أن

ترفضوا. [illegible] أنت كثيرا جدا! والكواكب

وسواها. والسؤال: فلماذا تكتب؟

[illegible]! الجواب: لا شيء إلا أن أحاول

انت لا تسأل العصفور لماذا يغرد .. فأنا

اغرد .. وكذلك كل الكائنات ابتداء

من الحصى أيضا وحتى ذرات سماوات

كشف السر .. انه شكل من اشكال

حديث .. وحوار .. من داخل النفس

او خارجها .. ولا احد .. انه الثرثرة التي تفرز

العقل لا تتوقف .. ولم تتعطل اطلاقا

انه نوع من الذات العقل .. واذا الرائد

الذي انه تراجع من نفسي

فيحيطه كل احد في وما .. ولم تتعلم.

وكذلك الكاتب والشاعر والمطرب

والنملة والنحلة .. والدودة تسعى تطلبه شتاءها

صندوقي الأسود 1

حياتي.. لا أعرف إن كانت هذهِ هى الكلمة المناسبة. ولا أعرف كيف أُسَمِّى نشاطى أو سلوكى أو حركتى من البيت إلى المدرسة.

- يا أنيس من؟

- أنا فتحي.. ياللا

- طيب..

كل يوم يجيء فتحى أو فريد أو عصام وينادينى لكى نذهب إلى المدرسة. وفى الطريق إلى المدرسة.. نمر على كوبرى صغير على ترعة ونتوقف لحظات حتى تمر السيارات ويجيء رجال المرور الذين يعرفوننا ويطلبون إلينا أن نسجل أرقام السيارات فى دفتر كبير أثناء غيابهم فى دورة المياه..

أو أنهم يتشاغلون. ونحن نجد لذة فى أن يكون لنا دور.. أو أن تكون لنا علاقة ودية مع رجال المرور. وبعد ذلك نتجه إلى الشارع الذى فى آخره المدرسة. ماذا قلنا فى الطريق.. وألاحظ أننى لم أشارك فى أى حديث.. فهم يتحدثون عن الذى حدث فى بيوتهم عندما يجيء أقاربهم من الريف أو من المدينة وكانت حكايات وخناقات.. وفى الطريق نجد أننا تحولنا إلى مجموعتين.. وكل مجموعة تتحدث فى موضوع وبمنتهى الحماس.. ورغم أن الذى يقولونه لا يبعث على الضحك.. فإنهم لا يتوقفون عن الضحك والكلام بصوت مرتفع.. فإذا وصلنا إلى المدرسة انفصلنا دون أن نقول كلمة وكل واحد أين يذهب.. أنا إلى الفصل.. والفصل دوشة.. وإذا دخلنا خفت الصوت.. ثم انقطع تماما.

السبب أن المدرسين إذا دخلوا فجأة وجدونى أقرأ فى كراسة أو فى كتاب والفصل كله يتكلم ويناقش وبصوت عال جدا.. فالمدرسون جعلوا منى. تلميذا مختلفا ويحاولون أن يجعلوا بقية الطلبة مثلي. ولكنهم لم يفلحوا.. فالمشهد يتكرر كل يوم.. هل ضاق بى زملائي. لا دخل لى فى هذا الاختلاف بينى وبينهم.. هناك هم وهنا أنا.. وفى كل الأحوال أجد نفسى وحدي. فأفتح كتابا أو كراسا أثناء الفسحة أو فى الدقائق التى تفصل بين الحصص.. ويجيء مدرس الحساب ويجد الهيصة والظيطة ويصرخ هو الآخر وفى يده عصا.. يضرب بها أقرب الطلبة إليه ويهدد ويشير إلى طالب يجلس إلى جوارى ويقول: يا ابن ال... تعلم من الطالب اللى جنبك.. اتعلم ياحيوان ياحمار.

ويتكرر هذا معظم الأيام وأنا أضيق بهذا المسكين الذى يمسكه المدرس ويقطعنا قسمين كل يوم.. لا نصفين.. وإنما أنا فى ناحية وبقية الطلبة فى الناحية الأخرى.

وتنتهى الحصص كل يوم وكل شيء يتكرر وأجدنى فى النهاية عائدا وحدى إلى البيت. ولا تسألنى أمى ماذا فعلت ولا ماذا حدث. لا أحد يسأل ولا أنا أتطوع فأقول ، أما أبى فهو عادة على سفر.

وتجيء الإجازة السنوية.. ويختفى الطلبة الزملاء هذا عند جده فى الريف وهذا فى دمنهور وهذا فى الإسكندرية. ماذا فعلوا؟ وماذا قالوا وأكلوا؟ لا أعرف.. ففى الإجازة لا أعرف.. فالأيام كلها متشابهة. ولم يعد أحد يقول ماذا فعل.. هو لا يجد متعة ولا أنا أشجعه على ذلك. واستقر عند الطلبة أننى العاقل والكل مجانين والذى له مستقبل وهم جميعا لا مستقبل لهم.

كيف؟!

المدرسون يقولون ذلك والطلبة يرددونه. وكل يوم يستدعون أبا لزميل. لماذا؟ المدرسون يشكون من سلوكيات الابن ومن بلادته ومن انشغاله بالبنات.. هذا وجدوا صورا فى كراسته.. وهذا وجدوا خطابا غراميا فى جيوبه.. وهذا يدخن.. وهذا يحشش.

ويجيء الساعى كل يوم يقول: مطلوب فى سنة ثانية.. مطلوب فى سنة رابعة.. يكلفنى أحد المدرسين ليطلب حل مشكلة حسابية أو قراءة نص أدبي.. وينتهى بأن يشكرنى وأن

يلعن آباء الطلبة..

ومن أحرج اللحظات فى حياتى فى ذلك الوقت أن جاء الساعى ليقول لى مطلوب سنة رابعة.. ويطلب منى المدرس إكمال بيت من الشعر أو آية قرآنية.. ثم يلتفت ويقول لى اضربه على قفاه.. كيف أضرب أخى الأكبر.. أنا أضربه أمام زملائه.. ووجدنى مترددا وقال: إذا لم تضربه على قفاه سوف أضربك على قفاك.. ولم أستطع فضربنى على قفاى مرة ومرتين.. وخرجت أبكي. وعدت إلى البيت. وفى الطريق جففت دموعي، وسألتنى أمي. فقلت لها: إن زميلا قد توفى فى حادث سيارة. قالت: لابد أن أذهب إلى أسرته للعزاء. فقلت لها الأسرة ذهبت إلى الإسكندرية ولا أعرف متى سيعودون. وسوف أخبرك ياماما.

ويجيء ترتيبى الأول فى كل السنوات الدراسية. وتتجدد الإشادة بى بمناسبة ومن غير مناسبة. حتى أحسست أننى عدو الطلبة. وأننى السبب فى أن المدرسين يشتمون ويضربون الطلبة.

وقررت أن أذهب إلى المدرسة فى آخر لحظة وأدخل مع المدرسين إلى الحصة.. وأخرج معهم بالضبط.. تفاديا لأى كلام يقوله الزملاء.

وتجيء خادمة الساكن فى الدور الثانى من العمارة: ستى عاوزاك.

- ليه؟

- مش عارفة.

- ستك مين؟

- أم زميلك شوقي.

- عاوزانى إمتي؟

- دلوقت..

- أنظر إلى أمى فتقول لي: روح يا ابنى دول ناس طيبين..

- تعال معايا ياماما..

- ناس طيبين قوى يا ابنى روح يا أنيس..

ووجدت الست هداية فى انتظاري.

وقالت لي: أنت بقى أحسن تلميذ فى المدرسة ادخل يا ابني؟ يا ابنى ادخل.. أنت بتذاكر كم ساعة فى اليوم؟

- طول النهار.

- تذاكر طول النهار؟

- أيوه..

- بتفطر إيه الصبح؟

- شاى وسندوتش جبنة..

- وبتتغدى إيه؟

- مش عارف..

- مش عارف ماما بتطبخ لك إيه؟

- أى حاجة.

- أى حاجة. ما حصلش إنك قلت لماما إن الأكل ده مش عاجبك. ولا رميت الأكل من الشباك؟

- لا؟!

- ولا زعلت وسبت البيت؟

- لا..

- مين الذى يقول لك ذاكر؟

- مفيش حد..

- ماما مابتقولش ذاكر؟

- لا..

- تعرف البنات اللى هنا فوق وتحت؟

- لا..

- ولا حاولت تعاكس بنت..

- (فى حالة غضب) طبعا لا..

- ولا البنات حاولت تعاكسك..

- لا..

- بتروح سينما؟

- لا..

- مابتروحش سينما؟

- لا..

- بتاخد مصروف قد إيه؟

- مفيش مصروف.

- حتطلع الأول السنة دي؟

- أيوه..

- متأكد؟

- أيوه..

- والسنة اللى فاتت مش كنت الأول؟

- أيوه.

- والسنة اللى قبلها؟

- أيوه..

- ماما سعيدة بك؟

- مش عارف..

- مش عارف إذا كانت مبسوطة علشان نجاحك..

- لا والله..

- وبتحلف كمان؟

***

ونظرت وراءها فوجدت ابنها زميلى فتضايقت جدا.. إ
أرادت أن تعاقبه نفسيا..

ثم التفتت إلى ابنها وقالت:

آدى العيال اللى تفرح بتذاكر طول الوقت.. ليست له مطا
ولا شيء يشغله فى المذاكرة.. مش أنت اللى غرقان فى الكا
الفارغ ويطلع ترتيبك مش عارفة كام كل سنة.. ولا مرة طا
فلوس علشان يشترى كتب..

- بتروح المكتبة العامة.

- إمتي؟

- كل يوم.

- ازاي؟

- بعد ما أخرج من المدرسة وأغسل وشى أنزل على طو
لحد ما تقفل المكتبة.

- ماشاء الله. لك إخوات؟

- كلهم أكبر مني..

- زيك كده؟

- لأ..

- ماحدش منهم بيطلع الأول؟

- لا..

- وكان هذا الحوار حديث القرية والمدينة ووجدت نفسى كائنا غريبا كل واحد يريد أن يراه وأن يجلس إليه.. كل الأمهات والآباء.. وانزعجت أمى وفزعت وجاءت الحاجة فتحية جارتنا بالبخور حول رأسي وجسمى وسريرى وتقول كلاما عن شر حاسد إذا حسد.. وشر النفاثات فى العقد.. وشر من رآنى ولم يصل على النبي.

ودخل الحزن قلب أمى والخوف على صحتي.. وانعزلت أمى عن صديقاتها وجاراتها.. وأنا أيضا.. لقد أصبحنا منبوذين.. أو كائنات غريبة لا مكان لها هنا.ولم أعد أخرج من البيت..

ولكن لم أتناقش مع أمى ما الذى حدث. ولماذا هى خائفة لهذه الدرجة. وعرفت أنها تزور الأولياء هى وإحدى صديقاتها وتطلب من الله أن ينقذنى من عيون الناس ومن عيون من أعرف ومن لا أعرف!

وتدور هذه الأحاديث فى دماغي.. إبرا ودبابيس وضيقا شديدا.. حتى كرهت الصداقة والزمالة.. ولا أعرف ماذا أفعل.

***

صندوقي الأسود 2

كان يوما بهيجا جدا.. جاء أبي.. ولا أعرف من أين. ولم أجد الشجاعة فى أن أسأله من أين .. وكان أبى أبيض الوجه أخضر العينين فى صحة وعافية.. لمست يديه وجدتهما ناعمتين وله ابتسامة حلوة.. حتى أمى كانت باسمة أيضا. ومن النادر أن تكون كذلك.

قال لى أبي: عندى لك مفاجأة..

- إيه؟

- أنت مش عارف إيه المناسبة؟

- لا..

- فكر قليلا..

- لا أعرف.

- المناسبة هامة جدا..

- إيه اللى فى حياتك هام جدا..

وكان فى يدى كتاب فقلت: هذا؟

ـ شئ أهم من ذلك.. يعنى مناسبة. مش فاكر؟

- لا والله..

- بكره عيد ميلادك. كل سنة وأنت طيب..

- آه.. وأنت طيب..

ونهضت أقبل والدي. لقد كان يضع عطرا جميلا.

وأشار أبى إلى صندوق كبير. وقال لي:

-المفاجأة فى الصندوق الكبير اللى هناك..

وبسرعة ذهبت إلى الصندوق وفتحته.. إنه كلب صغير..

- شكرا يابابا.. إنه كلب جميل جدا. اسمه إيه؟

ـ أنت اللى تختار له الاسم اللى يعجبك.. وأنت من النهار تتولى إطعامه والعناية به.

وجاءت أمى وأبدت اعتراضها على الكلب لأنه سوف تكو له مخلفات وهى لاتستطيع إلى جانب شغل البيت أن تهـ بالكلب أيضا.

وقال لها والدي:

- خلاص هوه وعدنى بأن يكون مسئولا عنه.

وأمى قالت بسرعة:

- سوف يعطله ويشغله عن المذاكرة.

والتفت أبى متسائلا إن كان هذا صحيحا.

قلت له: سوف أضعه طول الوقت فى حجرى وأنا أقرأ وأنا أكتب.. ماتخافيش ياماما..

قالت أمي:

- وأنا عندى لك مفاجأة..

- إيه؟

- تفتكر إيه؟

- مش عارف إيه؟

- رز بلبن وبالزبيب وجوز الهند.. ودى حاجة نادرة أنا لا أطبخها.. ولما طبختها من كام سنة عجبتك جدا..

- شكرا.. ربنا يديك طول العمر..

***

وقال أبى شعرا فى الكلاب.. ومن عادة أبى أن يجد شعرا لكل مناسبة.. شعر جاد وشعر هزلي.. وكان يطلب منى أن اسجل هذا الشعر لكى أحفظه بعدين.. وكان أبى يردد كثيرا كلمة بعدين أى فى المستقبل فيقول مثلا:

- المذاكرة سوف تنفعك بعدين..

وأسأله فيقول:

- فى المستقبل سوف تعرف قيمة الحياة الجادة والانضبا
والإصرار على أن تكون الأول.. وبعدين عندما تتخرج ف
الجامعة وتلتحق بالعمل فى أى مكان سوف يكون لك مستقب
عظيم لأنك واخدها جد ولأنك مستقيم ولأن عندك إصرا
أن تكون الأول عن اقتدار. وبالمذاكرة والتعب وليس بالغش
والنصب كل هذه الصفات أو السلوكيات سوف تنفعك دلوقد
وبعدين..

وتسللت إلى غرفتى ومعى الكلب أقلب فيه.. وأكتشف لو
والبقع السوداء فى جسمه وفى رأسه وعلى جانبى البطن.. و
أعد أسمع صوتا لأبى وأمى لقد انسحبا إلى غرفتهما.

وفى ذلك اليوم لم أعرف كيف أصف حالتى مش عارف
مبسوط .. سعيد هل لأننى رأيت أبى؟ هل لأنه قال أنه سو
يمكث معنا أسبوعا؟.. هل لأنه أهدانى الكلب؟.. وأنا أح
الكلاب. ولكنى سيئ الحظ مع كلاب أخرى كانت عندى
أول كلب كان صغيرا وأكله الذئب.. والكلب الثانى قض
عليه إحدى سيارات النقل.. والكلب الثالث مرض. ولا أعر
مرضه ولاعلاجه. ولم يكن هناك طبيب بيطري.. فاصي
باسهال شديد حتى مات..

ورغم حزنى على هذه الكلاب.. الحقيقة لم أكن حزينا تم
فقط عندما أتذكرها أو يذكرنى بها أحد.

فلما جاء جيمى وقد أسميته جيمى شعرت بالخوف عليه م

اخري.. وحرصت على ألا يخرج من البيت ولا أنساه فى غرفة الدجاج المكشوفة.. وحذرتنى أمى وأنذرتني. وأبى لم يضف إلى ما قاله شيئا. وهو على يقين من أن حبى لهذا الكلب سوف يكون مصدر سعادة لي.. وللكلب أيضا..

وطلب أبى أن ينظر فى كراريسى وكتبى فقال:

- نظيفة كما توقعت.. وكتبك نظيفة أيضا.. ويدك نظيفة وسوف تبقى نظيفة.

وجاء الليل بسرعة. وذهبت أمى إلى فراشها فهى مرهقة دائما وتنام مبكرا.. وجاءت الفرصة النادرة أن أجلس إلى أبى.. ولا اقول إنه كان دائم الضحك.. وإنما دائم الابتسام وعنده حكايات ونوادر فى الشعر القديم والحديث.. وهو يعرف طه حسين وأسرته الصعيدية ويعرف عباس العقاد وقرأ له.. وهو معجب به ويقول عنه: ده راجل تمام..

ولم يقل أديب أو شاعر أو ناقد.. ولكن لابد أنه قرأ له وأعجب به، وأبى من مزاياه التى لاحظتها أن يحول كل شئ إلى ابتسامة.

سألنى عن زملائى وقلت له ما يتم وقال: هذا طبيعي.. مادمت تمشى فى المقدمة فلابد أن يضربك الناس بالطوب.. وافضل لك أن تضرب بالطوب من أن يدفنوك تحت الطوب.. أن يحقدوا عليك لا أن يشفقوا عليك..

ثم يقول أبياتا من شعر جميل. وكان يحب شوقى والبحترى

وحافظ إبراهيم.. واحد اقاربه شاعر دمه خفيف أيضا..

وتمنيت لو جلست إلى أبى طول الوقت. ولا أذهب إ
المدرسة.. فالجلوس مع أبى متعة كبيرة. وفى يوم قال لـ
عاوزك تنام علشان حنروح سهرة جميلة سوف تبسطك جد

ولما ذهبت لكى أخبر أمى وجدتها قد نامت. وتحيرت مـ
أصنع.. إذا صَحَتْ ولم تجدنى سوف تقلق وتضطرب وتبـ
مع اننى مع أبى.. فكتبت لها ورقة أقول فيها إننى وجدتها نائ
ولم أشأ أن اوقظها.. ثم سحبت الورقة فأمى لاتعرف القراء
وأعدت الورقة حتى لاتضطر أمى إلى البحث عن الذى يق
لها هذه الورقة. وقد تذهب إلى أم زميلى فى المدرسة.. وتعر
أن أمى لم تتعلم.

وتكون حكاية ورواية للأمهات فى العمارة التى نحن نسكن
وفى الشارع وفى المدرسة.. وبسرعة أحضرت كوبا من الم
ووضعته إلى جوار السرير فقد تحتاج أمى إلى أن تشر
فلا تجد ماء قريبا عنها.. وبسرعة بحثت عن قرص إسبر
ووضعته إلى جوار الكوب..

وعدت بسرعة وانحنيت على أمى وقبلت يدها.. والله أ
وجهها جميل ويزداد جمالا عندما تستسلم للنوم..

وتأكدت أن الورقة فى جيبي.. وأخرجتها ومزقتها إلى قد
صغيرة جدا.

ولما عدت سألنى أبي. فقلت كنت أبحث عن منديل.. واستأذن
أبى فى العودة فقد نسيت المنديل على الكرسى قال:

- انتظرك هنا..

وأسرعت إلى البيت وفتحت الباب ولم يصدر عنه صوت واتجهت مباشرة إلى غرفة أمي.. وأبعدت كوب الماء عن سريرها حتى لايسقط الماء إذا تركته ومدت يدها فى الظلام.. ثم انحنيت عليها وقبلتها في جبينها ويدها.. وخرجت على أطراف أصابعي.

وسألنى أبي:

- وجدته؟..

- أيوه.

- ياللا بينا. سوف تسمع أجمل الأصوات وسوف تستمع إلى الموسيقى الجميلة.. إيه رأيك؟

- شكرا يا أبي..

- أنت نمت بعد الظهر..

- لا.. نسيت..

- آه إذن أنت سوف تنام ياجميل هاها.. سوف تنام.

وأرجو أن تنام عندما نصل لأن الأغانى سوف تجئ متأخرة.. هاها.

إن أبى يجد كل شيء يبعث على الضحك أو الابتسامة.. وهى مناسبة لأن يحكى حكاية مضحكة ثم يقول شعرا.. لقد عرفت لماذا يجئ الناس ويسألون عنه.. ونقول لهم دائما: مسافر..

- هو جاى بكره..

وأسأل: وكيف عرفت فيقال لى هوه اللى قال لنا إنه سوف يجئ الأمس..

اذن هم يعرفون ونحن لانعرف.. فهم يحبونه كثيرا وينتظرون ويوسعون له الطريق والكلام.. فهو سيد المتحدثين.. أمي الكلام والغناء.. ولكنى لا أعرف.. أن أبى مهم جدا محبوب جدا. يفتقدونه دائما..

ووقفنا أمام بيت قد أضيئت نوافذه وأبوابه ويبدو عليه الدفء الذى هو ترحيب عن بعد.. وانفتح الباب وصفق الناس عندما جاء أبى والأحضان والقبلات.. هذا ابني.. وجاءت أصوات تقول نعرفه.. نسمع عنه وعن تفوقه..

ودخلنا قاعة كبيرة امتلأت بالرجال فقط.. وجلست إلى جوار أبى ملاصقا له وأحسست بالدفء الحقيقي.. ولم أشعر به من قبل. ورأيت فيما يرى النائم أن احدا يغنى وأن هناك موسيقى وأن أبى يمسكنى من خدى ويقول لي:

- اصح يا بطل.. نحن وصلنا إلى البيت!

***

صندوقي الأسود 3

خالى وخالتى الجميلة جدا والشيخ أبوسلطان إمام المسجد وأبى وأمى أحيانا نجلس وأحيانا تتوجه أمى إلى غرفتها. فالكلام كله لا يعجبها. ولا يعجبها ما يقوله أبى وإمام المسجد. ولكنها لا تعرف ماذا تقول. ويبدو أنها أجلت الكلام إلى حين تنفرد بوالدي. ولم يطل الكلام فى هذا الموضوع. فقد أثير كثيراً. ولكن موقف أمى لم يتغير.

هل أكمل دراستى فى الأزهر. ومادمت قد حفظت القرآن الكريم بهذه السرعة. ويقول مشايخ القرية إن الله سبحانه وتعالى قد أعد لى مستقبلا عظيما. وأن هذا الذى يرونه هو من دلائل الخيرات.. ويتناوبون الضغط على يدى وعلى كتفى

وتقبيلي. ويبدو أن خالتى التى أحبها من رأى أمي. ولكنها ل
تتكلم.. ولم يطلب إليها أحد رأيها. وكانت تنظر لى بإشفاق.

أما أنا فلا أعرف معنى أن أدرس فى الأزهر ولا سألن
ولا كان لى رأى فى حياتي.. تماما كما أننى لم أطلب إلى
أمى يوما ماذا آكل وماذا ألبس. فالذى أجده أتناوله. والملابس
التى تختارها أمى هى التى ألبسها.. أحيانا قصيرة وأحيا
طويلة فهى التى تخيطها. وأحيانا يسألنى زملائى عن هذ
الفتحة التى على جانبى الجلباب. ويسمونها فى ريف الدقهلي
الفراجية.. ولابد أنها فى الفرجة أى الفتحة. وأمى هى التي
تختار الجزم.. ومرة واحدة اخترت جزمة واحد من أخ
الأكبر فكنت أضحوكة المدرسة لأنها كانت كبيرة وواسع
وقدمى لا تستقر فيها.. وفى إحدى المباريات طارت الجزم
مع الكرة وكان ذلك لكى يضحك الطلبة والآباء والأمهات بع
ذلك.

وأمي هى التى قررت أخيرا ونهائيا ألا أكمل دراستى ف
الأزهر.. أن أكون مثل عمى مستحيل. أن أكون مثل إم
المسجد وأن أصاب بعد ذلك بالعمى وأذهب إلى المقابر أقر
على أرواح الموتى مقابل فطيرة أو قرشين. هذا مستحيل
واختصارا للكلام ليلا ونهارا.. ووجدت أمى قد جمعت أشياء
وقررت العودة إلى بيت أبيها.. وأعدت ملابسى وكتبي. وحاو
والدى أن يردها عن هذا القرار ولكنه القرار الذى اتخذته أم
بعد أن ظلا يتكلمان فيه حتى الصباح.. وفوجئ أبى بأن أم
جادة.. وكل شئ قد انتهي. ولابد أن ينتهى الآن.. ونظر والد
إلى ما طيب رأسى ولم أقل شيئا. وسألنى ولم أرد. إذن ه

قرار نهائى لنا جميعا ولا رجعة فيه.. ووعدها أبى بأننى لن أذهب إلى الأزهر فأمى تنظر إلى كثير من أقاربها مهندسون وأطباء ووزراء ورئيس الوزراء إبراهيم باشا عبد الهادى لعائلة الباز عائلة كبيرة فى الدقهلية.. فى المنصورة ودمياط وفراسكور وكفر الباز.. ومن أجدادى أولياء لهم قبور تزار وفيهم فرنسيون من المغرب.. انتهى كل شيء. وتوقفت أمى عن الكلام وخرج أبى معنا بحثا عن تاكسى ولم يدر بينهم كلام ولا كلمة وداع.. وقد وعد أبى بأن ينتهز هذه الفرصة ويزور جدى وأخوالي.

وفى السيارة وضعت رأسى على كتف أمى ونمت. ولابد أن أمى وخالتى لم يتوقفا عن الكلام.

وتوقف التاكسى أمام بيت جدى ونزلت وبسرعة ذهبت إلى جدى وقبلت يده. وكان جدى ممتلئا وكان وجهه أحمر جدا ساخناً.. واحتضنى جدى قائلا:

- حمد الله على السلامة. أهلا وسهلا.. كويس قوى تقعدوا معانا الاجازة كلها.. تنورونا.. تآنسونا..

وذهبت أمى وخالتى تقبلان يده.. وظهرت جدتى وكان وجهها وأسلوبها غير مرحب. ولكن اعتادوا على ذلك فملامحها جادة صارمة فهى التى تأمر وتنهى هنا.. ربما كانت أمى مثلها.. لا.. أمى طيبة ودمعتها قريبة. وغلبانة ولكنها راضية بقليلها. وحبها لى يجعلها تضحى بأى شيء. وضحت كثيرا. وهى ماضية فى التضحية.

آه لو كانت تعرف القراءة.. لو كانت تعرف فائدة أن تقرأ أى ورقة تقدم لها. ولكنهم هم الذين تعجلوا بزواجها الأول

وزواجها الثاني. زواجها الأول من ابن خالها أسفر عن بنت
أحببتها طول عمرى وماتت صغيرة ولا أنساها. وكثيرا م
تظهر فى أحلامي.. ولها حكاية طويلة فى حياتي.

فقد عشت وحدي.. وحيدا.. أفتقد الأخ والأخت. وعلى
الرغم من أن لى إخوة تسعة فإننى كنت بعيدا عنهم. لماذا
أمي هى السبب. والغريب أيضا نحن الذين نزورهم وعن
الأقارب والسبب عندها أنهم سوف يشغلوننى عن الدراسة
من المذاكرة. وأنها تخشى أن يعطلونى عن الدراسة ويج
أبى هذه فرصته التى يبحث عنها لإدخالى الأزهر. واعتدت
وأدمنت القراءة.. أى كتاب أجده أحاول أن أفهمه ولم أوفق
فى ذلك كثيرا فالكتب التى عندنا فقهية صعبة.. أو كتب عن
الفلاحة وعلوم الزراعة.. ويبدو أنها كتب ابن عمتى الذى كان
أستاذ الألبان فى كلية الزراعة. كيف ولماذا هنا لا أعرف.

ولم يقل لى أحد أن أبعد الكتاب عن عيني. وأن أجلس جلسة
صحيحة وأن تكون هناك مسافة بينى وبين الكتاب. ولا قالت
لى أمى إن بيوت أقاربنا فيها كتب كثيرة ويمكن أن استعيره
وأعيدها. ولكنها خشيت أن أكون بينهم صداقات فأذهب إليهم
ويجيئون ويصرفونى عن القراءة الجادة ويكونون سببا فى
ذهابى إلى الأزهر..

***

ويتزوج أقاربى ولا أذهب إلى أفراحهم وأمى أحيانا كثيرة
لا تذهب حتى لا يخطر على بالى أنها مثل كل الناس شغلتنى
عن القراءة وأن كانت لا تعرف ماذا أقرأ وإن كان مفيدا أو
علاقة له بالدراسة. ويموت أقاربى ولا أذهب للعزاء وتعتذر

أمي بإصابتى بالبرد. وهى لا تكذب. فإننى مزكوم معظم أوقات السنة. ليس البرد وإنما هو الخوف من البرد.

فى يوم زارتنا إحدى قريباتى ومعها ابنتها تلميذة فى مدرسة المنصورة الثانوية مثلي.. ومن الباب وجدت قريبتى هذه تسأل عني:

- أمال فين بسلامته أنيس.. المدرسة كلها بتتكلم عنه.. والمدرسون بياخذوا كراريسه ويعرضوها على البنات.. فين اسم الله عليه..

طبيعى أن تنزعج أمي. وتشير إلى أن أقفل بابى بالمفتاح ولا أحدث أى صوت. فاليوم تراه أمى كارثة كبيرة جدا! واحدة بتتكلم بهذه اللهجة وأمى تخاف الحسد ثم إن ابنتها فى مثل سني.. وقد جاءت تسألنى أن اساعدها فى حل بعض مسائل الجبر.

أمى تقول:

- بسلامته رجع من المدرسة تعبان وزعلان مش عارفه من إيه يابنى ورافض يكلمنى أو حتى يأكل أو يشرب ربنا يستر..

وذهبت ابنتهم تدق الباب وتقول لي:

- افتح مش حاخد من وقتك حاجة ما تخافشي.. افتح عندى خطابات عاوزه أقولها لك.. البنات حتتجنن عليك ومش مصدقين أن احنا أقارب.. انيس فوق فوق وأنا تحت أذاكر ولا عاوزه أكمل.. أنا عاوزه أتجوز وأقعد ويبقى عندى عيال.. احنا عندنا فلوس مش عاوزة أشتغل.. افتح علشان أقول من

هم البنات أنا معايا جوابات منهم.. افتح بس.. أنا سوف أرمي
لك جواب من تحت الباب..

ورأيت ورقة ورقة من تحت الباب، خفت أن تمتد يد
إلى هذه الأوراق التى تشبه مناديل البحر أو قناديل البحر
والتى تتلون.. أحمر وأصفر وأزرق.. وأدهشنى أن تكون هذ
ألوانها.. ولا أجرؤ أن تراها أمي ولا أجرؤ أن اقول إنن
قرأتها.. أو حاولت. وأنظر إلى الأوراق على الأرض وتتغي
ألوانها ويدهشنى ذلك.. إيه المعانى التى تجعل الورق يتلو
ويتقلب فى الأرض محاولا أن تلمسني.. وتخيلت أن الأورا
طارت واستقرت أمامى على المكتب. وأن أحدا يقرأ هذ
الأوراق ولكن لا أتبين بوضوح ماذا تقول..

وكم مضى من الوقت لا أعرف. ولكن جاءت أمي وفتحت
الباب ورأت الأوراق على الأرض.

- إيه دى يا ابني.. البنت المسخوطة المايصة دى هى الت
رمت الورق ده وفيه إيه يا ابني.. فيه إيه..

- مش عارف ياماما.. ما أعرفش..

- يعنى أنت ما قريتوش..

- لا والله ياماما.. ولا فكرت..

- ربنا يحفظك يا ابنى ويكرمك..

وحملت الأوراق.. ورأيتها أوراقا صغيرة زرقاء ومكتو
باللون الأحمر. وفيها رسوم لورود وقلوب. ولا أعرف
ماذا حدث لهذه الأوراق أو الخطابات أو المداعبات
المعاكسات..

وأحسست أمى أنها جاءتنى فى الوقت المناسب وأنقذتنى من عبث البنات.. والمسخرة التى تراها الأمهات ولا تفعل شيئا.

وكما وعدتنى خالتى جاءت. وخالتى جميلة جدا وجهها تحفة فنية أبيض مستدير وشعرها ليل وأسنانها أبنوس وعيناها لا توصف وصوتها مبحوح.. ويقولون إننى ورثت البحة فى صوتى من خالتي.. وليس من كثرة إصابتى بالبرد. ثم إننى أحبها. وهى تحبنى ومن يرانا يخيل إليه أنها هى أمى فلم يرزقها الله لا بالولد ولا البنت.. فأنا ابنها. وتقول ذلك وأمى لا تعترض وهى أيضا تحب أختها أكثر من الأخوات الأخريات ويسعدها ويسعدنى أن تجيء خالتى وتبقى معنا أى وقت. فأنا أحب إذا عدت من المدرسة لكى أجلس فى حضن خالتي.. وفى أحيانا كثيرة أنام فى سريرها. ولا تمضى سوى لحظات حتى أكون قد نمت.. جميلة جدا خالتي. ولا أرى لها مثيلا بين النساء. وإن كان من النادر أن أنظر إلى واحدة وأدقق لكى أعرف ملامحها.. أجمل من أمي.. مش عارف.. لا أقارن بينهما. فأمى لا مثيل لها ولا نظير ولا يمكن أن تكون لها شبيهة حتى خالتى الجميلة.. ولا أستطيع أن أكمل هذه الجملة فأقول: أيهما أجمل. وأعدل عن هذا السؤال وهذه المقارنة..

وكان يوما أسود عندما جاءت جدتي.. وهى من النادر أن تفعل ذلك فأمى لا تحبها. لأنها سيدة عنيفة خشنة طويلة اللسان.. وكلما جاءت جدتى فإن أمى تضع أمامى ألف محظور إذا رأيتها وإذا سألتنى وإذا طلبت منى أى شيء. المطلوب أن أسكت. ولا كلمة.

وجاءت جدتى ومعها إحدى خالاتى وفتاة فى مثل سني.. وحاولت أمى أن تكون لطيفة معها مؤكدة طول الوقت أن أرد باختصار على أى كلام لجدتي.. واتجهت جدتى ناحيتي:

- ازيك يا ابنى عامل إيه.. إن شاء الله تكون حلو كده فى المدرسة. بص يا أنيس أنا بأحبك وعايزاك تبقى أحسن الناس.. وأنا عندى فكرة.. مش أمك بس اللى بتفكر أنا كمان بأفكر أحسن منها..

ثم التفتت إلى أمي:

- خدى بالك الكلام كلامي.. أنا معايا بنت خاله.. قمر وأنا عاوزه نقرأ الفاتحة النهاردة قبل بكره.. البنت يتيمه وأمها أنت عارفاها وأنا عاوزه أفرح بيهم بعد كام سنة قبل ما أموت يا ابني.. وأنت عارفة إيه اللى جرى لى بعد خالك ما مات. ماتت الدنيا كلها يا بنتي.

كان يوما أسود.. أسود..

لم أكن أعرف أن جدتى سليطة اللسان. ولم أتصور أن أمي تستطيع أن تقف أمامها وترد عليها كلمة بكلمة. وكانت أمي عنيفة أيضا. وأشارت أن أدخل غرفتى وأقفل الباب ولا أخرج لأى سبب..

ولكن كنت أسمع ما يقال ومالا يقال.. وقالت جدتي:

- أنا أعطيتك وأنا لولاي.. وأنت كنت فين لما.. ولما اتجوزت أول مرة.. ولما اتجوزت ثانى مرة ودخلت فى عالم الأفندية وبسلامتك جوزك فين.

وكانت أمى عنيفة جدا.. وارتفع صوتها وأغلقت النوافذ حتى

لا يسمعها أحد.. أما البنت الصغيرة فحاولت أن تدخل غرفتى ووجدت الباب مغلقا ونادت:

- عاوزه أكلمك أنا ماليش دعوه أنا بأحب واحد مش من بلدنا ولا من عيلتنا.. وأنا غير موافقة على جوازنا. اسمع اى كلام وأنا عاوزه أقول لمامتك علشان ماتوجعش دماغها لكن مش قادرة أوصل لها.. وعلى فكرة جدتى تعرف أننى بأحب واحد. لكن لأنه فلاح وعنده أرض ورثها عن أبوه.. هى عاوزه جوازتى من أولاد العائلة الواحدة.. وجدى موافق على جوازتى من فريد اسمه فريد لأنه طيب وورث عشرين فدان من أبوه.. لكن جدتى دماغها ناشف واللى فى دماغها فى دماغها.. وأنا فى السكة واحنا راجعين البلده حاقولها اللى يخليها تستر شعرها.. افتح الباب بقي.. أسلم عليك.. لأنهم خلصوا زعيق.. أهوه الباب انفتح وجدتى خارجه وشها أصفر من الكلام اللى سمعته مش من الكلام اللى قالته.. يا أخى افتح.. خلى عندك دم.. أفتح خلاص عنك ما فتحت.. ما تخافش اقعد ذاكر أحسن لك.. وإن شاء الله تشوف قريبا وأنا حادعيك فى كتب الكتاب ولازم تيجي. أشوف وشك على خير.. سلام عليكم.

وكما توقعت خرجت جدتى فى حالة غضب ولم تخرج أمى لوداعها. وفتحت الباب وذهبت أرى أمى التى ربطت دماغها وجلست على طرف السرير وبدأت تشرب من زجاجة الدواء.. وأشارت أن أدخل.. دخلت وجلست إلى جوارها. لم أقل شيئا. ولم تقل.

ثم نظرت إلى وجهى وقالت:

- أنت كنت بتعيط ليه يا حبيبي.

- أنا عارف أن حتتعبى من الكلام! ولم أكن أعرف أن جدتى بهذه القسوة والغلظة. والآن عرفت لماذا أمى لا تحبها.. وتفضل جدى عليها. وتمددت أمى على السرير وغطيتها باللحاف وقالت لي:

- سبنى لوحدي.. وروح يا ابنى شوف مذاكرتك.. روح ياحبيبي.. كل حاجة فداك يا ابني.

ولا أعرف أن أمى على صلة يومية بصديقاتها من الجيران ست أم جرجس والست أم هارون والحاجة فوزية وست إمتثال..

فقد لاحظوا أن أمى لم تتصل بهم فقالوا لابد أنها مريضة. والسؤال عنها واجب. وأنا أحبهن جميعا. كلامهن حلو.. وزيارتهن خفيفة. وكلها مجاملات وتدل على أن هناك علاقة حميمة تجمع بينهن. ولابد أن كل هذا يتم وأنا فى المدرسة ومن النادر أن تجيء واحدة لزيارتنا وأنا فى البيت.. إلا هذه المرة.. وأنا أحببت أن أكون موجودا أقدم الشاى والقهوة.. وأرد على تحياتهن ودعواتهن.

وكنت سعيدا بهذا الجو الدافيء الودى العميق.. ودق الباب فكانت الست رتيبة وابنتها وهى سيدة دمها خفيف وهى التى سوف تضحك الجميع بحكاياتها.. ولكن ما أن رأت أمى ابنة الست رتيبة واسمها نوال حتى أشارت أن أدخل غرفتى واقفل الباب.. وقفلت الباب واستغرقت فى القراءة وفى كتابة مذكراتي.. لا أعرف مادلالتها.. ولماذا.. وقد تجمعت كميا كبيرة منها وبعد سنوات اكتشفت أنه لا معنى لها فأحرقتها.

***

4 صندوقي الأسود

فى ساعة مبكرة جاء والدى وكانت مفاجأة سعيدة. وبعد دقائق جاء الحاج بسيونى والمهندس رشوان والطبيب البيطرى أبوالنجا.. وخرجوا معا. وفى المدرسة كان كل الطلبة فى الحوش.. وقالوا: إنها حفلة كبيرة. وقالوا لوداع أحد المدرسين وقيل إنها بمناسبة المولد النبوي..

ونادوا أن ندخل القاعة الكبرى وأن يجلس كل واحد فى مكانه ووجدت والدى فى الصف الأول.. وفجأة ظهر ناظر المدرسة وهو ابن خالتى وأنا لا أحبه.. ونظر إلينا وقال إننا يجب أن نتقدم بالشكر إلى الأستاذ أبوالفتوح مدرس اللغة العربية لأنه نقل إلى مدرستنا تجربة رآها فى أمريكا. ونشكر ابنه الدكتور عبدالمنعم أستاذ علم النفس والاجتماع الذى سوف

يتولى شرح كل شئ..وقد جاء يكمل هذه التجربة البديعة.
وسوف يحدثكم الأستاذ أبوالفتوح عن التجربة التى لايدرى
بها الطلبة وقد قاموا بها بنجاح واضح.

فقد استدعينا أولياء الأمور ليروا شيئا جديدا.. الأستاذ
أبوالفتوح يتفضل ويشرح تجربته البديعة.

وجاء مدرس اللغة العربية.. إنه يرتدى الجبة والقفطان
وله كرش ضخم ووجهه أحمر فإذا ضحك اهتز كل ذلك
وصوته غليظ ونحن نحبه لأنه لا يقسو على أحد.. ويؤكد
لنا دائما اننا مثل أولاده الذين يتعلمون فى أمريكا. وقال إن
التجربة قد رآها فى أمريكا فقد طلب الينا أن نكتب فى صفحا
من صفحات الكراسة ماذا حدث لنا فى الشارع منذ خروجنا
من البيت حتى وصلنا إلى المدرسة .. ماذا حدث فى البيت
فى الشارع إذا وقعت حوادث عطلت الذهاب إلى المدرسة
المهم كل ماحدث. المهم أن يكون هو الذى رأى وهو الذى
سجل وكتب. ولم يعرف التلامذة أن هذا امتحان وسوف نسمع
ما كتب التلامذة ونسمع تفسير الدكتور عبدالمنعم لعقلية كل
تلميذ وأى نوع هو.. وسوف يحدثنا عن مستقبل كل تلميذ من
طريقته فى الكتابة ومن طريقته فى حكاية ما رأى ومن نوع
الخط.

وقال الشيخ أبوالفتوح:

- أنا اخترت فقط عشرة من الطلبة الذين عبروا فأحسنوا.
الطالب محمد عبدالرسول درويش: يقول إنه خرج من البيت
متعبا لأنه سهر أمس. وكان فى نيته ألا يذهب إلى المدرسة
ولكن لما وجد أباه هو أيضا قد استدعوه فلابد أن يكون هناك

مصيبة أوخناقة أو غلطة فظيعة فراح يفكر فيما عساه أن يكون قد حدث له أو حدث منه هذا الأسبوع فلم يجد شيئا واحدا يستحق أن يستدعوا والده وكل أولياء الأمور.

وطلب إلى الدكتور عبدالمنعم أن يقول رأيه. فقال إنه طالب جاد وتفكيره سليم وموضوعي. وواقعى ومباشر. وسوف يكون رجلا ناضجا فى حياته العملية.

وقرأ الشيخ أبو السعود:

- الطالب أحمد سيف الدين مهران كتب يقول: إنه حاول أن يفهم سبب استدعاء والده.. فلم يعرف. وفوجئ بأن أحد زملائه فى سيارة وطلب اليه أن يوصله إلى المدرسة. وتوقفت عند الكوبرى لأن أحد اللوريات قد أصاب أحد المارة.. ولما نزل من السيارة وجد أن المصاب أحد الزملاء وانه فقد الحياة. وانه بكى عليه. وكان يتمنى لو بقى بعض الوقت ولكن الخوف من أن يتأخر عن موعد الدراسة. ولكنه لم يتوقف عن البكاء طول الوقت. وتمنى لو انهدمت المدرسة على المدرسين والطلبة ليلحق زميله قبل أن يصل إلى بيته ويدفنوه.

قال د. عبدالمنعم:

- أنه طالب عاطفى وفى نفس الوقت لم يضع وقته فى التفكير فى استدعاء والده.. وإنه تأثر كثيرا جدا لما أصاب زميله وتمنى لو الدنيا كلها انهدمت ليسرع إلى جانبه.. وهو عاطفى ولكنه فى نفس الوقت يدرى بكل خطواته وسوف ينجح فى عمله وربما عطلته سلوكياته العاطفية.

وقرأ الشيخ أبو السعود:

- الطالب متولى نور الدين السكري: كان من عادته أن يذهب إلى المدرسة على ظهر حمار ولكنه هذه المرة فضل أن يمشى على قدميه حتى يصل فى الموعد.. ولما رآه رجل المرور سأله: أمال فين عربيتك الفورد هاها.. وقرر أن يسلك طريقا مختصرا. وفوجئ بمن يلقى عليه ماء من البلكونة وتبللت هدومه وعاد إلى البيت جريا. وارتدى ملابس أخرى ولم يستطع أن يرى شيئا فى الشارع غير أنه أحس أن الشارع أطول من كل مرة..

وقال د. عبدالمنعم:

- هذا الطالب ظريف دمه خفيف وكاتب ساخر. وكان من الممكن أن يقول أكثر لولا أنه اكتفى بمساحة صفحة من الكراسة. وهو إنسان ناجح. وحريص على مظهره مهما كلفه ذلك من تعب.. فهو يهتم بنفسه ويهتم برأى الناس..

وقرأ الأستاذ أبو السعود:

- التلميذ سيف الدين بكرى الشوادفى لم ير فى الشارع أى شئ.. فكل شئ عادى وكل شئ فى مكانه كما كان بالأمس. وليس عنده ما يقوله وأمسك طوبة وضرب بها إحدى السيارات فأصاب زجاجها.. وتوقفت السيارة وجاء رجال المرور وأصر أصحاب السيارة على عقاب الطالب.. ولكن رجال الأمن قالوا: إنه ابن العمدة وهو حسن السير والسلوك.. ولابد أنه اخطأ وسوف يعتذر. والحمد الله لم تحدث أى خسائر. واعترف التلميذ بأنه تعمد أن يخلق حادثة ليكتب عنها!

وقال د. عبدالمنعم:

- هذه بداية صحفى موهوب.. إذا لم يجد أحداثا فإنه يخترعها. وهذا شئ غريب على تلميذ فى هذه السن وهو لم يعرف معنى إيه صحفى ويعنى إيه الكتابة الصحفية والحيل التى يلجأ إليها الصحفيون كبارا وصغارا.

وقرأ الشيخ أبو السعود أن الطالب توماسيان إيه بعدها.. توماسيان كفاية كده هاها.. كتب يقول لما وجد الجو بديعا والسحب وراء الغيوم.. والأشجار كثيفة والتى لم يرها من قبل أخرج الكاميرا وراح يصور هذا المنظر الجميل.. ثم صور الأطفال وصور الأبقار فى الترعة والأوز والبط.. وصور سيدة عجوز تأكل خبزا جافا وتنظر إلى كل هذه اللحوم بحسرة شديدة ويأس فى أن يجئ يوم تأكل فيه بطا أو أوزا أو لحم بقرة. فهجم على بطة وأمسكها وأعطاها لهذه السيدة العجوز وقال: لاتخافى سوف أشتريها وأهديها لك. ونظر فى الساعة فوجد أنه ليس أمامه إلا دقائق فظل يجرى حتى وصل إلى المدرسة فى موعده.

وقال د. عبدالمنعم:

- هذا فنان من الدرجة الأولى وكما عرفت الآن إنه من أسرة كلها مصورون وعندهم دكان يبيعون فيه آلات التصوير وليس غريبا أن يكون مصورا بالفطرة والعقلية والمهنية أيضا. فهذا الطالب قد اختار طريقه فى سن مبكرة.. اختار طريقه أو اختاروا له طريقه وسوف ينجح فى عمله..

ووقف الشيخ أبو السعود فضحك وقال :

- إن التلميذ نادر عبدالجواد الشناوى اعترف بأن كل

الحكايات التى كتبها ليست صحيحة وأنها من خياله لأن الطريق إلى المدرسة لايمكن أن تكون فيه أي أحداث لأن بيته أمام المدرسة. وأنه يمشى دقيقتين فيجد نفسه فى الفصل ولابد أن يقول شيئا. وقال إنه أمسك صحفا قديمة وراح ينادى عليها وكلما استوقفه أحد قال له هذه صحف بكره مش النهاردة .. وفي أثناء عودته إلى المدرسة فوجئ بوالده ومدرس الحساب فسأله: ماهذا.. فقال له: الدكتور قال يجب أن تدرب حبالك الصوتية إذا كنت مصرا على أن تغني.. وأنا أدربها. وضحك أبوه وضحك الشيخ أبو السعود وكل الحاضرين..

وقال د. عبدالمنعم:

- والله أنا سعيد جدا. ولو قلت لهم فى أمريكا أن هذا ما كتبه طلبة صغار يعيشون فى الريف فإنهم لن يصدقوني.. فكل طالب منهم موهبة فريدة. وهذا الطالب ظريف وأمين فقد اعترف بأن شيئا من ذلك لم يحدث وانه اخترع وتحايل ونجح..

وعاد الشيخ أبو السعود:

- والطالب عبدالسميع محمد رشوان فقال إنه عادة لا ينظر تحت قدميه.. فالشارع نور وبه مطبات وأكوام زبالة تتجمع بالأسبوع والشهر دون أن تمتد إليها يد.

ولا أحد يشكو أويطالب بعقاب وقد تكسرت كثير من السيارات والدراجات وسقط الناس أيضا. وهناك كوم كبير من الزبالة تأوى إليه سيدة عجوز ومن الغريب أن الأطفال يضربونها بالطوب ولم يحدث أن منعهم أحد من إيذاء سيدة

مسكينة. وأن هذه المسكينة قد تكومت عليه منذ هذا الصباح.
وكان حريصا أن يكون هنا ليغير الصورة الكئيبة التى رآها.

وقال د. عبدالمنعم:

- اخيرا ظهر ناقد واقعي.. فتح عينيه مرة واحدة فرأى مالم
يعجبه وسكت عنه الناس. ولكن بحسه أنه تصور أن هذا النوع
من الكتابة جاء على مضض منه. مع أنها الكتابة الواجبة.
ولكنه كاتب واقعى وناقد منصف وسوف ينجح!

ووقف الشيخ أبو السعود:

- الطالب إدوار حليم.. إدوار حليم فلتأوس. خرج من البيت
واتجه إلى المدرسة فوجد رجلا قد أصيب فى ذراعه وراح
الناس ينظفون الجرح بالتراب.. وبعضهم اقترح قليلا من البن
والرجل الجريح مستسلم تماما.. فاتجهت إليه مباشرة وسحبته
إلى أقرب صيدلية. وهناك غسلوا الجرح ووضعوا له صبغة
اليود والقطن وربط ذراعه ولم يتقاض أجرا لأن هذه صيدلية
والده.. ووجد نفسه قد تأخر بضع دقائق. وكان الرجل أعمى
فسحبته معى وسألته اين يريد أن يذهب فاختار مكانا قريبا
من المدرسة.. ولكن الرجل بطئ الخطي. وسوف يؤخره
عن موعده. فطلب منه أن يجلس أمام محل بقالة يملكه عمه
وأوصى به. وانطلق إلى المدرسة..

وجاء د. عبدالمنعم وقال :

- وهذا كاتب إنسان ذكى حسن التصرف. لقد أنجز كل ذلك
وبسرعة ولم يتعطل عن موعده..

ووقف الشيخ أبو السعود وقال:

- الطالب جرجس رفائيل إسكندر وعده أبوه أن يوصله بسيارته إلى المدرسة. والسيارة قديمة وكثيرة الوقوف وحاول أن يهرب. ولكن والده أصر. وكان هو الذى يقود السيارة فجعلها تتجه نحو المدرسة.وكان ينزل منها ويطلب من الناس أن يساعدوه. هو كان يساعده. وكان هو يقود السيارة وهو يمشى إلى جواره. وإذا دارت السيارة ركبها.

واتجه ناحية المدرسة، وتوقف الموتور ونزل يطلب مساعدة الناس. ثم طلب من أحد اللوريات أن يساعده وربط السيارة باللورى وتوقفت السيارة أمام المدرسة ونزل هو ووالده.

وقال د. عبدالمنعم:

- وهذا إنسان واقعى ذكي. فهو قد حقق أهدافا فى وقت واحد. دفعوا السيارة إلى المدرسة وتوقفت ودفعوها حتى وصلت. إنه واقعى ولكن ليس عنده خيال. ولو كان زملاؤه فى نفس الظروف لكتبوا شيئا أجمل وأذكي. فهو انسان عادي. ونجاحه فى حياته عادى جدا.

وأخيرا وقف الشيخ ابو السعود وقال :

- وهذا هو الطالب: أنيس محمد منصور أول المدرسة وأحب التلاميذ إلى المدرسين استقامته واجتهاده وتفوقه. ونحن نكرر تهنئتنا لوالده.. قال: إنه قبل أن يخرج من البيت اطمأن على أن الأدوية الموجودة إلى جوار سرير والدته مضبوطه. ورتبها حسب تناولها.. وضع كوبا من الماء والسكر والشاى

إلى جوار السرير.. وسحب الغطاء على أمه دون أن يوقظها.. وخرج ثم عاد بسرعة لقد نسى أن اليوم موعد الحقنة.. ولم يستطع أن يكتب ورقة لأن أمه لاتقرأ فذهب إلى جيرانه ورجاهم إذا صحت أمه من النوم أن الأدوية كلها فى مكانها ومقاديرها وأن الحقنة فى مكانها وإلى جوارها الكولونيا والقطن والإسبرين. ولما فتح الباب دخلت قطة. وراح يطارد القطة فى كل مكان حتى خرجت فأقفل الباب وانطلق إلى لمدرسة.. ووقف د. عبدالمنعم:

- وهذا نوع نادر من البشر ذوى الحساسية الشديدة المحبين لأمهاتهم. وأصحاب التجارب الأليمة فى حياتهم.. ومثل هذه التجارب تترك أثرا عميقا فى نفوسهم.. أثرا حزينا .. ومثل هذه القلوب الطيبة سوف تعانى فى حياتها. فالحياة قاسية على هذه النوعية من البشر.. ولكن أسلوبه فى الكتابة يدل على اتساع الأفق والاطلاع ونجاحهم صعب. وهو كتلميذ ناجح نموذج للقدرة على الصبر والتضحية. ولمثل هؤلاء الناس ترفع القبعة.. عيبه الوحيد كما نرى جميعا أنه يمشى فى الشارع ولا يستوقفه شئ أو أحد. أنه يمشى مغمض العينين . ولكن تتفتح كل الحواس على الألم العظيم فى حياته. ساعده الله.

ومال الشيخ أبو السعود على والدى وهنأه وقال له:

- ابنى الدكتور عبدالمنعم عنده كلام يريد أن يقوله لك خاص بولدكم أنيس بارك الله فيه.. إنه لايعرف أنه قد حفظ القرآن الكريم والهمزة النبوية والشعر القديم والحديث.. وأن أحدا لم يسمع عنه غلطة واحدة فى المدرسة أو فى الشارع..

ولاغلطة بارك الله فيه.

وانفجر ضاحكا:

- عندى حكاية غريبة. فأنيس ابننا راح يشترى بسبوسة بقرش. ولما فتح ورقة البسبوسة فى الطريق وجدها كبيرة. فعاد إلى البائع يقول له:

- أنت غلطت. أنا عاوز بسبوسة بقرش مش بقرشين.

ولكن البائع قال له:

- أيوه صحيح لكن أنا عاوز أعطيك حته كبيرة. لأننى أحبك وأحب والدك محمد أفندي!

ولكن هو أصر على أن يأخذ ما اعتاد أن يأخذه بقرش. وأصر على ذلك.. وأصر البائع ألا يفعل شيئا!

وانفرد د. عبدالمنعم بوالدى وقال له:

- يجب العناية بصحة الولد. لأنه شاطر فى كل حاجة ولكنه ضعيف البنية لا أعرف من قلة الأكل أو من قلة النوم أو من الاثنين معا. حتى لاتكون صحته عائقا فى درب نجاحه إن شاء الله.

ووعده والدى بأن يبحث فى هذا الأمر. وسألنى وقلت ما أعانيه كل ليلة مع أمى ومعه هو أن جاء وقرر المبيت وسكت والدى ولم يجد ما يقوله.. ولا أنا وجدت. فنحن نعرف بالضبط ما أعانيه وليس له حل!

***

ومن حين إلى حين تحملنى أمى بعض الفواكه والبلح وتقول لى: ادى الحاجات دى للست أم جرجس.

ذهبت وعدت، وسألتني: كانت موجودة فى البيت، فلا أحد من أولادها لكن وأنا نازل على السلم قابلت عم انطون أبو جرجس وقال لي: لازم تقعد يا ابنى تتغدى معانا..

واعتذرت وشكرته..

وبسرعة قالت أمي: كده كويس..

لأننى رفضت الدعوة.. فالإنسان يجب أن يكون خفيفا، ومادام ابنها جرجس لم يتناول غداءه عندنا مرة واحدة فأنت أيضا يجب أن تفعل مثله..

ومرة ثانية طلبت منى أمى أن أحمل البرتقال والموز والبلح إلى ست أم كوهين، ولكن الست أم كوهين فاجأتنى بأسلوب مختلف.. فهى قبلتنى واحتضنتنى وقالت لي: سلم على ماما..

وكانت الست أم كوهين فى غاية الحيوية دائما.. وفى غاية الأناقة وبيتها فى غاية النظافة وتضع عطورا قوية.. ثم غابت لحظات وعادت وأعطتنى شيئا مماثلا.. وأكدت علىّ أن أنقل لها تحياتها وشوقها وتؤكد أنها سوف تزورها قريبا.

وكان لابد أن أسأل أمى على تبادل الفواكه.. فقالت:

- إنها بعتت لنا بطبق من الكشك وطبق من البامية.. ولابد من الرد عليها بشئ ما.

ولاحظت أخيرا أن كل أصدقاء أمى يسكنون فى بيوت

متجاورة أو فى بيت واحد، ولكن لأننى لا أذهب إليهم إلا على فترات متباعدة فقد تخيلت أن البيوت بعيدة وأن الذهاب إليها يحتاج إلى وقت طويل وإلى جهد كبير فى طلوع السلالم..

ولم أكن قد لاحظت أن هناك مكتبة صغيرة فى حارة مجاورة.. وكأننى اكتشفت كنزا.. فأكثرت من التردد عليها.. ولكن الكتب الموجودة بها لا تغريني.. ولكن صاحب المكتبة كان رجلا لطيفا وكان يفرح إذا جئت ويطلب فورا شيئا أشربه.. واعتذر.. وأدخل المكتبة الصغيرة وأقلب فى كل الكتب.. وفى يوم لم أجد عمى إسماعيل المنوفى صاحب المكتبة وإنما ابنته.. أصغر منى فى السن.. ولكن عرفت أنها مثلى فى السنة الأولى الثانوية.. حلوة.. قلت هذه الكلمة هامسا كنت أخاف أن تسمعها أمي.. وأنا كنت سعيدا بالذهاب لأراها.. تصرف جديد وسلوك مفاجئ.. وبسرعة ظهرت حبال وأشواك التى تشدنى إلى الوراء بعيدا عن البنت.. وعن المكتبة أيضا..

ولاحظت أن الست أم جرجس بيتها كبير وواسع وأن لديهم سطوحا واسعا يجلسون فيه إذا صار الجو حارا.. أما الست أم توفيق فلاحظت أنها فى كل يوم سبت تغيب عن البيت وتذهب إلى أقارب لها عندهم قصور فى حى أرستقراطى بعيد.. وسمعت كلمة أرستقراطي.. وسألت عن معناها.. فقالت أمي يعنى همه أغنية، ناس زى ابن خالى إبراهيم باشا عبدالهادي.. وزى قرايبك من عيلة الشربينى وعيلة العطار وعيلة أمى الباز.. ولم يحدث أن سمعت من أمى هذه الأسماء.. ولكنها أرادت أن تؤكد لى أننى إذا لم أكن غنيا ولا أرستقراطيا فأقاربى أغنياء جدا..

ويبدو أنها تضايقت من كلامها عن الأغنياء.. فهى لا تريد أن أشغل دماغى بغنى وفقير ولا أن ألتفت إلى أننى لست غنيا، ولذلك نبذت الحديث وغيرت الموضوع وقالت:

- ابقى كلمنى عن المكتبة وبنت صاحب المكتبة الصغيرة.. نها طفلة..

فقلت:

- لا البنت فى مثل سنى وتبيع للناس وتحاسبهم وشاطرة.. وأنا أعرف ما سوف يحدث.. سوف تمنعنى أمى من الذهاب إلى المكتبة والاكتفاء بالمكتبة الفاروقية.. والسبب؟ أن هذه المكتبة الصغيرة بها بنت فى مثل سنى وجميلة.. وأنا الذى استخدمت كلمة جميلة.. ولابد أن أمى فكرت فى الموضوع ولم تسترح فقررت الامتناع عن ذهابى إلى المكتبة.

وكانت إلى جوار بيتنا جمعية خيرية لها نشاط.. ونشاطها محاضرات يلقيها أناس يجيئون من القاهرة ويلقون حفاوة حارة..

ولاحظت أن أمى سعيدة جدا إذا ذهبت إلى هذه الجمعية ولذلك تتكلم عنها كثيرا.. وهى بمنتهى السهولة تمشى إلى الجمعية من البيت على قدميها.. وترتدى أمى ملابس مختلفة.. ملاءة سوداء لا تغطى صدرها.. ولا جانبا واحدا من الجسم.. وأدهشنى ذلك.. ولكن لم أذهب إلى أبعد من ذلك.

ولما عادت أمى سألتها عن الذى سمعته فى الجمعية فقالت:

- والله يا ابنى مش فاهمة كل الكلام.. والناس يصفقون للرجل.. لابد أنهم قد فهموا ماذا قال.. وقالت إن والدى أحيانا يذهب إلى الجمعية هو وأصدقاؤه.. ولا يحضرها إلا الرجال.. أما السيدات فيجلسن بعيدا بعضهم يأتى بكرسى من بيته وبعضهم واقف.. وبعضهم قد انصرف قبل المحاضرة وأثناءها وقبل نهايتها.. ولكن لماذا؟

السبب بسيط: لم تعجبهم ما يقول السادة القادمون من القاهرة.. وعندما قلت لأصحابى عن هذه المكتبة عرفت أنهم قد ترددوا عليها ولم يجدوا فيها شيئا مفيدا.

وفى يوم اجتمعنا بالصدفة فى هذه المكتبة الصغيرة، وظهر بوضوح ما الذى يهم كل واحد منا.. وذلك عندما امتدت أيدينا إلى الكتب- فأنا أفضل كتب الفلسفة وعلم النفس.. بينما آخرون يهتمون بالتاريخ والمذكرات وعدد آخر يهتم بالرسم والموسيقي.. لماذا؟ لا أعرف ولم يحدث أننا ناقشنا هذا الاختلاف والتباين بيننا.. فليس عندنا وقت ويبدو أنه لن يكون هناك وقت.. فنحن بالصدفة نلتقي.. وكل كلامنا عن الذى قرأنا.. وفى كثير من الأحيان لا أفهم مايقوله الزملاء.. يعنى ما الذى نريد.. أو ما الذى يراد منا.. ما المفروض أن نفعله لكى نكون أفضل أو لكى نكون عند حسن الظن..

وفى إحدى المرات سألتنى أمي:

- الكلام ده كله عن إيه يا ابني؟.

وكانت تقصد ما الذى قاله أصدقاء أبي.. إنهم يقولون كلاما واحدا: إننى ماشاء الله كويس جدا.. ولكن أحدا لم يفتح

لى كتابا ولا كراسة.. ولا حتى سألنى أحد إلى أين تذهب بعد الحصول على الثانوية العامة أو التوجيهية.. فأبى كان يريدنى أن اذهب إلى الأزهر.. ولا أعرف إن كان هذا رأيه.. ولكن أمى اعترضت.. وكان على شكل تمرد.. لم يكن مجرد كلام.. وإنما كان قرارا قاطعا بأن تجمع حاجياتها وأن نذهب إلى بيت جدي.. وذهبت معها ولا أعرف ماذا سوف يحدث.. لا هى قالت ولا أنا سألت.. وكانت أمى حزينة جدا.. وكلما نظرت لى قالت: أبدا يا ابنى مستحيل يلبسوك عمة وتبقى زى عمك.. أبدا..

ولكن لم تقل ما الذى سوف تعمله أو ما الذى سوف يكون من أمري، فهى التى تقرر وهى التى تصر على قرارها مهما كانت النتيجة.. ولا أعرف إن كانت أمى تناقش مثل هذه القضايا العائلية مع صديقاتها.. يجوز فهى عندما تجئ صديقاتها إلى بيتنا فإنهن يتهامسن.. ولا أستبعد أن يكون لصديقاتها رأي.. فكلهن أمهات لطلبة لن يذهبوا إلى الأزهر..

ولأنه موضوع خاص جدا فإننى لا أذكر أننى قلت لأصدقائى عن سبب سفرنا إلى جدى فى الريف.. ثم إن أحدا لا يسأل.. فهذا أمر طبيعي.

ولكن جاء والدى إلى بيت جدى وانفرد بأمي.. وكانت أمى سعيدة.. ولم تقل لى شيئا.. وتمنيت أن أعرف كيف اقنعت أبى ليعدل نهائيا عن دخولي الأزهر، وقال لى أبي: خلاص يا ابني.. مفيش أزهر.. وأنت تدخل الكلية التى تعجبك.

وأنا لا أعرف الكلية.. ولا حتى معنى كلية.. وما الذى يجعلنى أختار هذه وأرفض تلك وأحيانا أقفل على نفسى الباب

وأتساءل: ليس لى رأى فى أى شئ.. وأمى لها الرأي.

وجاءت التوجيهية أو الثانوية العامة وكان ترتيبى الأول.. ثم كانت هناك مسابقة فى كل العلوم وجاء ترتيبى الأول فى مسابقة الفلسفة.. إذن سوف أذهب إلى كلية الآداب قسم الفلسفة.. وبس..

ولم أتساءل إلا فى مرحلة متأخرة جدا عن جدوى دراسة الفلسفة.. وإذا تخرجت فأين أذهب.. كانت عندى صورة غير واضحة عن كل شئ فى ذلك الوقت.. فإما أن أكون مدرسا للفلسفة فى المدارس الثانوية أو فى الكلية.. ولكن عندى صورة غامضة عن كل الأشياء.. فأنا أريد أن أعمل فى مؤسسة دولية.. يعنى إيه دولية؟ الحقيقة لا أعرف أين التقطت هذا التعبير أو هذا المعني.. لماذا لأننى أعرف عددا من اللغات.. وسوف أبقى فى هذه المؤسسة.. أين هذه المؤسسة.. ليس لها وجود إلا فى خيالى المحدود.. ولا أظن أننى جلست وأقفلت الباب وجعلت أفكر فى خيالي.. ولا أنا ذهبت إلى مكان على النيل وجلست وحدي.. أو اخترت بعض أصدقائى وسألتهم: وأنتم إلى أين.. وبعد ذلك أسألهم وأنا إلى أين.. وقالوا وسمعنا واختفى غموضنا إلى ضباب.. والنتيجة لا أعرف إلى أين.

وفى الليل نادتنى أمى وقالت لي:

- بكره سوف تعرف كل شئ..

- فسألتها: عن أى شئ؟

قالت: عن كل حاجة أنت عاوز تعرفها.. عن الجامعة وعن

مستقبلك وإن شاء الله سوف تجد ما يريحك.. فقد لاحظت أنك مهموم يا ابنى أكثر من أى وقت.. والشباب فى سنك يكونون أكثر مرحا وأكثر حيوية وليسوا كارهين للدنيا والناس.. معلهش يا ابنى احنا ظروفنا.. وأنت تعرف..

ولما قالت لي: أنت تعرف، لم أشأ أن أسأل.. فأنا لا أعرف شيئا عن هذا الذى تقوله أمي.. ولكن سوف أعرف..

ولم أفكر فى الذى انتوت عليه أمي.. ولابد أنها فكرت وقررت.. وفى الصباح المبكر كانت أمى فى غاية النشاط وارتدت ملابسها الفاتحة.. ورتبت لى ملابسي.. ثم جاءتها إحدى قريباتها وكانت عندها سيارة صغيرة وقفت بالباب.. ركبنا.. ولم تنطق أمى بكلمة ولا صديقتها، فقد قررا ألا يقولا شيئا أمامي.. وكان الصمت مخيفا.. ولم يقطع هذا الصمت إلا نظراتى الحائرة من عينى أمى ووجه صديقتها.. أما السائق فهو ابنها وقد تخرج فى كلية الحقوق وسوف يعمل محاميا وقد رتب له أبوه شقة فى عمارة فى المنصورة.. وهو سعيد بهذا العمل.. فأبوه محام وخاله وجده وابنة خالته أيضا.. أوضاع استقرت.. وانتهى الأمر.. والكل سعداء.. فالسعادة هى الاستقرار.. أو هى القرار الثابت الذى أحبه الجميع.. وهذا ما حدث.. وهذا مالم يحدث عندنا.. فنحن نريد القرار السعيد.. ومن أجل ذلك ركبنا السيارة وقصدنا أحد أقارب أبي: لطفى السيد باشا.. وأنا لا أعرف من هو وإنما وجدتنى فى مواجهة رجل وقور يلقى عظيم الاحترام من كل الناس.. ودفعوا بى إلى حضرة الرجل أى إلى الحضور.. فالجو الذى وجدته هو أن الرجل له هيبة.. وهذه الهيبة تبدأ من باب البيت.. بل من

التفكير فيه.. والحضرة والحضور تبدأ من السيارة عندما نتهيب الإشارة إليه.. ولابد أن كلامه هو القرار الفصل أو الفاصل من الغموض والظلام والخوف الذى أنا فيه ومن شئ آخر سوف أعرفه.

دفعونى إلى حمام تركي.. بخار وضباب دافئ.. ولم أستطع أن أعرف ملامح الرجل.. فلم أنظر إليه وإذا نظرت فأنا أتوجه إليه ولكن لاشئ واضح أمامي.. فأننى غارق فى هيبته وخوف ومالا أعرف من المعاني.. ولا أعرف متى بدأ الباشا الكلام.. ومن حين إلى حين كان يقول أنت ماتزال شابا صغيرا يا ابنى ولكنك سوف تعرف.. المهم ألا تخاف فأى قرار يمكن الرجوع فيه.. فلا خوف من التجربة.. أنت شاب والمستقبل لكم.. وأنت وحدك تقرر إن كنت سوف تمضى فى دراسة الفلسفة أو تعدل عنها لشئ آخر.. ولكن اختيارك رائع ومستقبلك باهر، فكل أوراقك تؤكد اجتهادك.. وأمك قلقة عليك.. وتراك وأنت تذاكر فتبكى من أجلك.. ولم أكن أعرف ذلك..

أما كيف انتهى هذا اللقاء أو هذا الحضور الذى غبت عنه.. حضرته ولم أحضره.. ولما سألتنى أمي: طبعا رجل عاقل وعظيم وكلامه لك منتهى العقل والحكمة.. الحمدلله.

على ماذا نحمد الله.. لا أعرف.. لم أفهم.. لم يمسك يد ويدق باب ويقول:

- الولد ده كويس وقريبى وشوفوا المناسب له..

ولكن قد تحدد الطريق إلى المستقبل.. أما الطريق فأنا أعرف أوله.. والباقى أجهله تماما.. على الله.

الشئ المؤكد أننى وحدى أفكر.. ولم أعرف إن كان من الطبيعى أن أحكى لأصدقائى واسأل وانتظر.. إن لقاءنا فى ساعات محدودة.. وقد اخترنا نوع الكلام.. وبس.. لكن لا أحد منا يتحدث عن حاله.. ونحن لا نتحدث لأننا بعد اللقاء والكلام المحدد أيضا نعود إلى بيوتنا.. أما زملائى فيلتقون علي العشاء أو الغداء أو فى الملاعب.. وكل ذلك لا أشارك.. لم أحاول.. ولا حاولوا هم ايضا.. ورأوا أن هذه حياتى وأنا غير قادر أن أخرج على الخط.. والخط أنا الذى حددته.. هو أن نمشى وأن نتناقش وأن نجلس وأن نكمل النقاش إذا مرت إحدى البنات تهامس الزملاء ولم يشركونى فى شئ.. اعتادوا على ذلك.. وأنا أيضا.. فلا أستطيع أن أحكى لهم عن حيرتى ولاهم يسألون.. تعبت؟ والله تعبت.. ويبدو أن هذا قدرى على استضافى المتاعب والهموم لدرجة أن أمى كذلك قد فهمته أننى جاد وأنا لا أحب المسخرة.. والمسخرة هى أى كلام تافه.. أو كلام عن البنات.. فلانة التى تسكن إلى جوارنا ولم تجدنى أن كلمتها مع أننى لاحظت إنها تزور أمى وهى تصاحبها.. ولكن إذا رأيتها آويت إلى غرفتي: غرفتى والصمت.. فهذه تعليمات أمى التى صارت سلوكا قاطعا.. ويبدو أنهم على صلة بهذه لجارة وبغيرها ولابد أنها قالت شيئا عنى أضحكتهم.. ماذا؟ ' أعرف ولم أسأل ولا في نيتي.. تعودت.. تعلمت.. هذا قرار نهائي.. قرار من؟ قرار أمى طبعا ولم يحدث مرة واحدة أن سألتنى أمي: وأنت إيه رأيك يا ابني.. أنت صاحب الشأن لابد أن يكون لك رأي.. فهذه حياتك..

لم يحدث.. ولا أدرى ماذا عساى أن أقول.. لو حتى سألتنى أصرت على أن تعرف.. لا هى تسأل وإذا سألت فلا تصر..

وإذا سألتنى فسوف تكون الإجابة عن أى سؤال هى إجابتها..
مرة واحدة قلت: لا..

واندهشت أمي.. ولكنها فى نفس الوقت ظهرت عليها علامات السعادة.. هل لأننى كان يجب أن أقول: لا.. هذه المرة ومرات سابقة..

***

ظهر التردد على وجه أمى والسعادة فى نفس الوقت، فأنا قلت: لا.. وبكل قوة والمعنى أنه لا تراجع.. وأن هذا عصيان لأول مرة.. وكانت سعادة أمى معناها أن أقول: لا.. مرة ومرة.. أو أنها سوف تقول لنفسها: إننى كبرت وإننى لى رأي.. وإننى أخالفها.. ولكنها تعلم أننى طيب مستقيم مجتهد هذا مؤكد.. فلا خوف علي.. ولكن خوفها لم ينقص.. ولكنه هناك.. ويظهر معظم الوقت.. وحاولت أمى أن تشرح لى أن تسمع منى مرة أخري: لا..

وقلت:

- لا مرة أخري.. قالت سوف تعيش وحدك بعض الوقت فى مصر وبعد شهور سوف نعيش معا.. وترى أن أحد أقاربها أو ابن صديقة لها يمكن أن نعيشا معا وهو شاطر يطبخ ويغسل ويكنس ودمه خفيف.. وكل واحد معه فلوسه ينفق على نفسه..

وقلت:

- لا.. أبدا وحدى وإلا فلا.. وطبيعى أن تسألنى أمى عن السبب.. وقلت كلاما كثيرا لم تفهمه.. فهو رغاى وله أصدقاء

كثيرون سوف يزورونه وسوف يكون ذلك فى توقفى عن المذاكرة.. فأنا لا أستطيع أن اذاكر فى الدوشة.. وقد اعتدت على الهدوء.. ولكن لم تقتنع أمي.. وفجأة قلت لها: ياماما بيعرف بنات كثيرة وهذه البنات سوف تجئ واحدة وراء واحدة.

ولا تحتاج أمى لكى أكمل عبارتى وأشرح وأقول.. فقالت:

- خلاص.. معك حق.. خلاص يا ابني.. ربنا يحفظك بعقلك ويفتح مقاصدك.. خلاص يا ابني!

***

لم يحدث أن قالت أمى أو أبي: توضأ وصل هنا فى البيت أو فى المسجد..

ولم يحدث أن قالٍ أبى أو أمي: جاء رمضان سوف تصوم.. ربما كان ذلك امراً عاديا . أو بديهيا أن أصلى وأصوم. ولم يحدث أن لاحظ أحدهما أننى لست صائما.. أو أنه قد جاء العصر ولم أصل المغرب أو العشاء.. ولم ألاحظ أن أمى تصلى بانتظام. ولكن أبى يصلى ويقرأ القرآن والأدعية. وأحيانا يؤذن فى البيت أو يذهب إلى المسجد. وفى البيت يصلى وحده. وأحيانا أصلى وراءه أو لا افعل ولم أر أمى تصلى وراءه..

لا مبالاة؟ يمكن. هل هى مسألة شخصية.. وكل واحد حر يصلى أو لا يصلي. ولكن عند الفجر اعتدت أن أصحو وأن أشرب الشاى بالنعناع. ولا زالت هذه عادتى حتى اليوم. اصحو مبكرا وأشرب الشاى وأقرأ أو أكتب.

وعندما أعود من الكُتَّاب وملابسى قد اتسخت لم تؤاخذنى أمي. ربما تطوعت فقلت لها إن الكتاب مليء بالقش والبراغيث. وإن هذا هو السبب.. ربما قلت ذلك مرة أفسر بها ماذا حدث. ولكن بعد ذلك لم تسألنى أمي مرة واحدة عن سبب تلوث ملابسى أو رأى أثر الضرب على قدمي من سيدنا.. أو أن يدى قد اتسختا وأننى سارعت إلى غسلهما عند عودتى مباشرة وبسرعة كأننى أخفى شيئا. والشيء الذى أردت إخفاءه هو أننى مكلف بالبحث عن البيض. وأن كل الدجاج قد باض.. فكل واحد منا نحن التلامذة الصغار له مهمة.. هذا يكنس وهذا يغسل وهذا يقطف الملوخية وهذا يقمع البامية. وهذا يرش الماء أمام الكتاب. ولم أجد سببا بعد ذلك لأن اقول سبب غسل يدي.. أو غسل وجهى لكى أخفى أثر الدموع فقد ظن سيدنا أننى أتكلم فراح يضربنى بعصاه.. ثم يطلب أن يسمع صوتى وأنا أبكي. ولا يتركنى إلا إذا بكيت بصوت مرتفع. ولما حاولت فى إحدى المرات أن أروى لوالدى ما يفعله سيدنا لأسباب غريبة، فلم أجد اهتماما أو حماسا عند والدى لسماع ذلك. فكل شيء بديهي. وكل شيء طبيعي. ولا داعى لذكره أو انتظار تفسير له..

ونحن لا نرى أن الكُتَّاب قذر أو يحتاج إلى نظافة أو أن سيدنا رجل قاس. فنحن لم نر الكتاتيب الأخرى ولا أصحابها أو مشايخها من العميان أو غيرهم. فكل شيء معقول. فلا توجد عندنا أسباب للمقارنة. فالكتاب أو الكتاتيب كلها هكذا. والقرى كلها مثل قريتنا: بيوتها من طين إلا الناس الأكابر.. وكان جدى من الأكابر فبيته من الطوب الأحمر. وله بوابة كبيرة. وأمامه فانوس يضيء ليلا.

وأمام البيت مصطبة كبيرة وعلى هذه المصطبة يجلس جدى وحده. وهو رجل ممتليء الوجه. ولونه أحمر وعيناه خضراوان أو زرقاوان لا أعرف. وفى مرة حاولت أن أعرف فوجدت اللون أزرق وسألت جدي. لماذا هو أحمر اللون أزرق العينين. ولماذا جدتى بيضاء خضراء العينين. ولماذا خالتى لها ملامح جميلة جدا. ولكنه ضحك ولم يقل شيئا.

وكان جدى هذا رجلا رقيقا. ولم أسمعه يوجه لى نقدا أو لوما رغم كثرة الشكوى مني. الشكوى لأمى من أننى أصعد الأشجار وأقع من فوقها. ورغم أننى فى إحدى المرات حاولت أن أقلد الثعلب الذى يصعد النخلة بظهره من شدة الحرص. حاولت وسقطت. وحاولت ووقعت فوق حجر أسال الدم من جبهتى ومن عيني. ولم تسألنى أمى عن السبب. وإنما انهالت على ضربا مبرحا. ثم بكت وراحت تحضننى وتعتذر لي. وتقول: بكرة لما تكبر سوف تفهم يا ابني!

*****

ربما كان الذى يجب أن أفهمه أن جدتى كانت سيدة عنيفة. وكان لا يعجبها ردود فعل أمي. فهى تريدنى أن توجعنى أو تترك البيت لأنها لاتحب أمي.. أو أنها تكره أن يجدنى الناس كل يوم وقد وضعت ركبتى على ساقى أختى ونمت. وأختى هذه غير شقيقة ولكنى أحببتها. فكانت تكبرنى بسنتين أو ثلاث. حلوة سمراء. حمراء عيناها جميلتان وشعرها ذهبي. والناس يضحكون عندما يروننا جالسين معا متلاصقين دون أن نتكلم وكانوا يقولون: العروسان.. ازيك يا عريس.. ازيك يا عروسة.

وكانت أمى أيضا لا تحب هذه العلاقة التى ظللت أفتقدها طول حياتي. وكنت أحلم بأختى كثيرا. وكلما كبرت أحسست أننى أفتقدها وكنت أتمنى أن تعيش لا أن تموت. ولم أعرف بموتها إلا بعد سنوات. ولما علمت بكيت وبكيت وتعالى صوتى فى البكاء. وأمى مندهشة لذلك. وكانت تقول بعد فوات الأوان:

- لو عرفت يا ابنى أنك تحبها إلى هذه الدرجة لسعيت عند أبيها أن أضمها وأسعدك يا ابني.

هل مرضت لهذا السبب؟ نعم. هل أضربت عن الطعام. هل جاءت فكرة الانتحار فى ذلك الوقت. هل أحسست أننى بعد أختى هذه لم يبق لى أحد فى هذه الدنيا. ولا أعرف لماذا كان ارتباطى عميقا بها. وأنا لا أعرف معنى الحب. وكان يضايقنى الناس عندما يسألوننى ساخرين: أخبار عروستك إيه؟

وهم يعلمون أنها أختي.. ولكن اتخذوها مادة للفكاهة. وعندما نلتقى لا تشكو ولا أنا أشكو. ولا أذكر ماذا كنا نقول. ولم نكن فى حاجة إلى أن تقول هى ولا أن أقول أنا. نحن سعداء بالجلوس معا. دون كلام. ومن غير كلام أذهب إلى مكان فى أرض جدى فأجدها جالسة وحدها فى انتظاري. من بيت جدى مرورا بالساقية الكبيرة وفى طريق ضيق. أحيانا يكون من الطين وأحيانا يكون جافا. وكنت أخلع القبقاب من قدمى وأمشى حافيا. وإذا ارادت أختى أن تشرب فإننى أسرع بأن أحاول تنظيف مياه القناة بيدى فتمد يدها وتملؤها بماء النيل وتشرب. وكذلك أنا. وفى الطريق إليها بضريح جدنا

الأكبر "الشيخ الباز". أحيانا نقرأ له الفاتحة. أو ندرى ولا نقرأ فنحن مأخوذان عن الدنيا كلها.. فقط وجودها إلى جانبي. ولا يهم ما يقول الناس. أحيانا نسمعهم ومعظم الوقت لا نسمع. فماذا نقول. لا نقول معظم الوقت. وكيف يودع أحدنا الآخر.. لا يحدث وداع وإنما عند نهاية الطريق الضيق الموحل معظم الوقت ننفصل تذهب هى إلى بيتها وأنا أيضا.

ربما مرة واحدة سألتنى أمي:

- شفت أختك؟

قلت: - نعم

أمي: - كويسة؟

- كويسة..

- تحبها؟

- أيوه..

- جدا..

- جدا..

- والله يا ابنى أنا مش عارفة أعمل لك إيه.. وانتوا لما تقعدوا مع بعض بتقولوا إيه؟

- ولا حاجة..

- يعنى ولا كلمة..

- أيوه..

- بس تجلس إلى جوارها..

- تمسك إيدها..

- لا..

- تحضنها.. هى أختك..

- لا..

ربما كان هذا هو الشيء المضحك.. فنحن مشدودان إلى بعضنا البعض. أنا أخوض لها الحقول حتى أجدها.. فإذا وجدتها لا أعرف إن كنت ابتسم لها فرحا بهذا اللقاء أو هي.. أنا لا أنظر إليها.. إلى وجهها.. إلى ملابسها.. إلى عينيها.. لا شيء من كل ذلك.. أراها. فأجلس إلى جوارها وهى تتوقع ذلك. ولا أعرف إن كانت هى تنظر إلى أو ناحيتى عندما ترانى قادما مسرعا إليها وإذا جئت إليها فأجدها قد وضعت هى أوراق الشجر وسعف النخيل لكى أجلس عليه حتى لا تتسخ ملابسي. هل شكرتها؟ هل شكرتني؟ لا..

حتى عندما كنت آتى لها بقطع السكر أو بعض الحلوى التى جاء بها أبى. كنت أحتفظ بنصيبى ولا أقربه وإنما أحتفظ به لأختي.

***

وكان المؤذن لصلاة الجمعة من أقاربنا. وكنا نسمعه ولا نتحرك لا هى تعود إلى البيت لتصلي، ولا أنا.. وفى شهر رمضان كانت لاتصوم.. ولا أنا أيضا. ولكن لماذا؟ أنا لا أعرف لأننى لم أسألها.. ولما تترك بيت جدى وتعود إلى المنصورة وأفكر فيها ينتابنى الندم لماذا لم أقل لها ولماذا لم أسأل ماذا حدث فكان طلاق أمى وأبيها. أو لماذا لم أمسك

يدها. لماذا لا أحضنها. أنها أختي. لماذا لم أقبلها فى جبينها أنها أختي. لم أفعل كل ذلك ووعدت نفسى أن أفعل كل ذلك. ولم يحدث شيء فقد انتقلت نهائيا إلى المنصورة وانشغلت واتسعت الشقة بيننا فى المكان والزمان واستغرقتنى الدراسة تماما. ولا سألت عنها.. ولكن بعد سنوات وبالصدفة عرفت أنها ماتت.. إنها صغيرة ولماذا؟ وبأى شيء ماتت. وكيف ماتت؟ وكيف أمى لم تذهب لتمشى فى جنازتها أو تبكيها.. ورغم أن أمى تعرف مدى حبى لها. فلم تشأ أن تقول لماذا؟

السبب معروف: حتى لا أنشغل عن المذاكرة ويجيء ترتيبى الأول- وهى الإسطوانة التى لا تملها أمى سنوات..

كم كنت أتمنى أن أراها وأبكى عليها وأملأ عينى بها وصدرى وقلبى ولكنها لاتزال فى مكان ما مني.. حتى اليوم عندما ترد على خاطرى وأتذكر صورتها فإن قلبى يدق. كنت ومازلت فى حاجة إليها. وكنت أتمنى أن أقول لها وتقول لي. ولكن مضى عمرى كله ولم أجد من أستطيع أن أشعر بمثل براءتها وطهارتها ونقائها. وعندما أرى فى الأفلام من يعانق ابنته بحرارة ومن تعانقه أخته. إنها أحضان صادقة وحرارتها شريفة. وقد حرمتنى أمى من كل ذلك..

وكان زملائى يندهشون لبعض الأسئلة مثلا: إن كانت أمى مريضة أو أن لها أختا. وأن كانت على قيد الحياة.

أسئلة غريبة يرونها. ولكن عندى مبررات لذلك. فقد كنت أتصور أن كل تلميذ لابد أن تكون أمه مريضة مثل أمي.. وأن يكون أبوه مريضا أيضا.. وأن له أختا لم تمت..

يرحمها الله. لم تمت فى نفسى وعقلى وعزلتى وغربتى وقلقى وصراخي: آه.. يا أختى آه.. لو عرفت!

ولما كنت أسمع عن احد مات وله أخ أو أخت كنت أقول: يا بختك.. أن لديه ما يجعله يبكي.. ما يوجعه.. ما يؤلمه.. إلا أنا.. ولكن عنده قضية!

*****

صندوقي الأسود 5

لا يزال التعب باديا على وجه أمى كأنها مريضة أو سوف تكون وإن كانت مريضة طول الوقت ولا أعرف ما شكواها وإن كنت فى كل مرة أسألها تقول:

- أنا كويسة.. متشغلش نفسك ذاكر يا ابني!

ولكنى أريد أن أعرف وقررت فى المرة القادمة عندما أذهب إلى الأجزاخانة أن أسأل عن هذه الأدوية لأى مرض.. وإن كنت لا أحب أن أعرف مرض أمى أو أمراضها إنها مريضة وبس..

- وقد عانيت من انتقاد زملائى كلما سألتهم إن كانت أمهاتهم مريضة وكانوا يندهشون لهذا السؤال فقد كان عندى يقين أن

كل أم مريضة.. وليس معقولا أن تكون أمى هى المريضة الوحيدة فى هذه الدنيا.. لماذا هى ولماذا أعانى بسببها أنا لم أتعذب بل أبكى أحيانا سرا ولو عرفت أمي يضايقها ذلك وقد ضبطتنى فى إحدى المرات أبكى حزنا عليها فقالت: بتبكي؟ قلت: إننى وضعت فى عينى قطره.

قالت:

- والله يا ابنى أنا عاوزة قطرة

قلت:

- القزازة خلصت..

وطلبت منى أن اجلس معها على السرير إلى جوارها وليس فى مواجهتها وقالت لي:

- تعرف يا ابنى الستات صحابى دول من أحسن الناس ربنا أكرمنى بهم..

ولم تكن هناك مناسبة للكلام عن صديقاتها لأول مرة ولكن لابد أن عندها أسبابا لذلك.

قالت:

- تعرف الست أم جرجس أحسن من أى أخت لى مش عارفه إزاى هى طيبة هى اللى طبخت وكنست البيت عندما كنت مريضة..

والله هى التى فعلت ذلك ولم أطلب إليها.. وأنا أظن أن إبنها جرجس مؤدب وشاطر مش كده؟

قلت:

- أيوه مؤدب وشاطر جدا وأنا بأحبه لأن لما ضاع منى القلم أعطانى قلما من عنده ورفض أن يسترده حاولت ولكنه رفض..

واعتبر أن سلوكى هذا يدل على اننا لسنا أصدقاء.. ولما بابا كان عيان كان يسأل عليه ويقول: بابا بيسأل عليه وكان عاوز يزوره لولا أنه سافر فجأة..

- طيب يا ابنى خليه يجئ لك البيت ويتغدى معاك أو يتعشى مادام أنت بتحبه وتحترمه..

- حاضر يا ماما..

وتعرف الست أم هارون.. دى يهوديه زوجها مات وعايشه مع أخوها وابنها هارون وست طيبة جدا وكل مرة تيجى هنا تقول لى أنا منتهى أملى أن أزورك كثير وأساعدك فى أى حاجة فى البيت.. وكنست البيت مرتين.. وغسلت هدومك وهدومي.. والله عملت كده من نفسها.. وبتقول إن ابنها هارون بيحبك ويحب يكون معاك.. هو معاك فى نفس الفصل.. طيب أنت مجبتتش سيرته يا ابنى أبدا. خليه يجئ لك يا ابني..

- أيوه هارون مؤدب جدا وفى حاله ومجتهد.. ونظيف دايما.. ملابسه نضيفة ومكوية.. وكلامه حلو.. وعنده كتب كثيرة وطلب منى أزور مكتبته وأختار اللى يعجبني..

- وأنت مارحتش له..

- كان لازم أستأذن منك يا ماما..

- روح يا ابنى مادام أنت شايف كده طيب وكويس وشاطر..

روح يا ابني.. واقرأ.. ولما تأخد الكتب لازم ترجعها نظيفة زى ما أخدتها.. أخدت منه الكتب..

- لسه يا ماما..

- وتعرف الحاجة.. هى دى اللى بتدينا الفساتين بالتقسيط وإذا أنا مقدرتش ادفع فى الميعاد تسكت ولا تطالب وإنما تقول: لما ربنا يفرجها عليك ابعتى لى الفلوس.. ولما تزورنى تقول والله أنا مش جاية اقول لك أنت مادفعتيش القسط.. والله جاية أزورك وأسأل عن صحتك وعن انيس ربنا يخليه وينجح مقاصده والست رتيبه محترمة وعينيها مليانه.. جوزها رجل غنى ومبسوط وما يبخل على أولاده أبدا.. ولما عرف أننى عيانه عرض أنه يبعت لنا خدامة.. وبعت خدامة وكانت بنت صغيرة وأنا شكرته وأخدت البنت معاى وقلت له الحمد لله أنا بقيت كويسه.. وكل ما بيجى لها سمك زيادة تبعت لنا.. أو تيجى لهم فاكهة من الجناين بتاعتهم يبعتوا لنا برتقان وجوافه وتفاح ومشمش.. وتبعت كمان من المزرعة بالفراخ والأرانب.. طول الوقت تبعت لى وتبعت لكل صاحباتى وصاحبات الست رتيبة كمان.. وهى محبوبة من كل الناس.. وبنتها شاطره قوى فى المدرسة.. لكن يظهر حتتجوز قبل ما تروح الجامعة.. مش عارفة لكن سمعت كلام بالمعنى ده..

وسكتت أمى ونظرت لترى أثر هذه الحكايات على وسألتني:

- إيه رأيك فى الناس دول..

قلت:

- كويسين قوى يا ماما - لكن أنا مشفتهمش هنا..

قالت:

- أيوه.. دائما تيجى فى الوقت اللى أنت بتبقى فى المدرسة مش عاوزين يعملوا لك دوشة فى البيت علشان تذاكر وربنا يكرمك يا ابني.. آدى الأصحاب ومن غيرهم الحياة مالهاش طعم.. ولازم يكون لك أصحاب من النوع ده يا أبني.. أحسن من الأخوات.. من إخوتك وخالاتك وعماتك.. حاول يا ابنى وأنا أساعدك..

ولم أفهم ما الذى تقصده أمى من الحديث عن صديقاتها إلا إذا كان الغرض هو أن أصادق أولادهم.. أو أنها أرادت أن تعرض بعض النماذج الجميلة.

ولعلها أرادت أيضا أن تقول أن أقاربنا الذين يسكنون معنا فى نفس الشارع لم تذكر أحدا منهم.. لا السيدات ولا أولادهم زملائى فى المدرسة وهى لا تعرف أن واحدا من أقاربى صديق لى وكان فى نيته أن يزورنى ولكنى فى كل مرة أتعلل بأسباب حتى لا يجئ مادامت أمى لا تذكره ولا تريد ولم يحاول أحد من أقاربنا أن يقترب منا أو يزورنا وإن كان بعض أولادهم يسألوننى عن صحة أبي.. ولا يسألون عن أمي.. لماذا؟ لا أعرف.

ولكن لابد أن هناك سببا لذلك سبب عندنا وسبب عندهم..

وأمى إذن لا تريدنى أن تكون لى علاقة بأقاربنا وقد حاولت فى إحدى المرات أن أحدثها عن مكتبة كبيرة فى بيت أحد

الأقارب وأنه لا مانع عنده من أن أتفرج عليها وأستعير الكتب التى أريدها وكان رفضها قاطعا وبسرعة غيرت الموضوع ولولا أنها كانت تسعل لسألتنى عن تفاصيل هذا اللقاء وكيف ولماذا؟ وأين؟

واعتدلت أمى فى جلستها وتحدثت عن أبي:

- إنه رجل طيب. ولكنه لا يعرف طبائع الناس وإنه يرى كل الناس طيبين وقد أوذى منهم كثيرا ولكنه لا يتعلم - هذا رأى أمى وسكتت طويلا.. ثم استأنفت الكلام بنفس الحيوية والشهية المفتوحة والرغبة فى الكلام وهى حالة نادرة قالت:

- تعرف الشيخ رمضان.. رجل طيب وأبوك بيحبه.. ولما يقعدوا مع بعض ما يبطلوش ضحك.. وحاولت مرة أن أعرف إيه اللى بيضحكهم ما عرفتش المهم إنه مبسوط وبس.. ولكن الشيخ رمضان يطلب من أبوك فلوس وإذا أخدها لا يعيدها وأبوك لا يحاول أن يستردها.. أنه خجول.. وأنت ورثت هذه الصفة عن أبوك.. ليه ما أعرفش أنت بتعمل ايه بالفلوس.. لما تبقى عندك فلوس.. ولكن إذا مرض أبوك فالشيخ رمضان أول من يسأل.. يجئ.. أو يترك ورقة تحت الباب..

وحانت الفرصة وسألت أمي:

- هوه بابا بيشتغل إيه..

وظننت أن أمى سوف تقول أى كلام.. ولكنها قالت:

- أبوك مفتش زراعة.. كان عند عدلى باشا يكن ولما مات اشتغل عند اخوه عز الدين بك يكن..

قلت:

- يعنى إيه.. بيعمل إيه يا ماما..

قالت أمي:

- هوه اللى يراقب الفلاحين وهى تزرع وهوه اللى يديهم المصاريف.. وهو اللى يقسم الأرض.. دى تزرع قمح ودى تزرع ذرة.. ولما يجمع فلوس كثيرة يسافر بها للباشا فى مصر.. وهى شغلانه صعبة متعبة..

- وفين أرض الباشا..

- الأرض فى الصعيد..

- وليه احنا هنا مش هناك..

- علشان الجو حار جدا.. ومدرستك هنا.. والباشا له أرض هنا.

وأشارت أمى إلى كوب الماء فأسرعت وقدمتها لأمى التى ابتلعت أقراصا..

قلت لها:

- يا ماما إذا كنت تعبت بلاش كلام يا ماما.. وقت تانى يا ماما..

وكأننى لم أقل شيئا إنها مصرة أن تتكلم.. شكرا لها فقد كنت فى حاجة إلى أن أعرف ولماذا.. وكيف..

واستراحت أمى إلى ما قلت وأحست أن الرسالة التى كانت تريد أن تبعث بها قد وصلت واننى استوعبت تماما كل ما كانت تريد..

ثم عادت تقول:

- والراجل ده إمام الجامع هو اللى كان عاوزك تروح الازهر..

ومضت تقول:

- ومدرس اللغة العربية رجل كويس قوى وهو اللى قال إنك لازم تكمل تعليمك وتدخل الجامعة وتسافر إلى أوروبا للحصول على درجة علمية كبيرة لأنك شاطر ومؤدب وحافظ كلام ربنا وربنا يحفظك يا ابني.. هوه الوحيد اللى رفض الأزهر وقال كلاما معناه أنه أضاع العمر كله فى حاجات مالهاش فايدة.. وان بشهادة الأزهر ممكن تشتغل حانوتى أو مقرئ فى الترب وبس ودى نهاية زى الزفت.. والحمد لله انك مش حتدخل الأزهر وتبقى زى عمك - الحمد لله - وقبل كده كان فيه إمام للمسجد اسمه الحاج مدكور.. وكانت مراته أميرة طيبة وتحب الفرفشة ولكنها فى غاية الادب إذا جاءت للزيارة كانت زى الريشة كلامها حلو وحكاياتها مسلية وربنا يجبر خاطرها بالولد أو البنت انها متجوزة من 25 سنة وماعندهاش عيال.. والعيب من جوزها.. وهى تتحدث عنه باحترام فهو رجل كريم وبيحبها ويتمنى لها كل خير.. ويقول لها إن ربنا مازرقناش بالولد.. يمكن الولد كان يطلع وحش زى خاله اللى دخل السجن مرتين لأنه عاكس واحدة ست واتجوز واحدة ست وضحك عليها.. أو زى عمته اللى اتجوزت أربع مرات وكل مرة بفضيحة وهى السبب ويحمد ربنا أنه مارزقوش بولد أو بنت.. وهى ما بتحبش السيرة دى ابدا عشان ماتجرحش شعوره.. لأنه هو السبب ومش هيه.. وأنا زعلت لما سافرت

وراحت إسكندرية ودق الباب ووقفت سيدة تقول لي: أنت أنيس مش كده.

- أيوه..

- ماما فين؟

- جوه.. مين حضرتك أقول لها مين؟

- خليها مفاجأة..

ولم تكد تراها أمى حتى قفزت من السرير: حمد الله على سلامتك.. امتى رجعت من أمريكا.. ازاى الأولاد أهلا وسهلا يادى النور.. أهلا وسهلا والله لك وحشه.. وأنت رحت وقلت عدى لى ولا جواب ولا تليفون..

أحضان عميقة وقبلات..

ومضت أمى تقول:

- أهلا يا د. فوقيه أهلا ونورت.. يادى النور يادى النور..

وجلست د. فوقيه:

- ازيك الحمد لله صحتك كويسة.. وازاى انيس فى المدرسة.. أنا عارفة أنه كويس.. أبنى كتب له جواب وهو رد عليه وقال إنه كويس وإنك كويسه وبابا كويس والحمد لله.. وسألت عنك طانط سعديه كانت فى أمريكا بتتعالج وقالت إنها شافتك عند الست أم هارون اللى لها دكتور فى أمريكا هو اللى عالجها وهى دلوقت كويسه قوى لأنه دكتور شاطر جدا ومعروف فى أمريكا ورفض ياخد فلوس لما عرف أن

احنا قرايب.. تصورى والله ده اللى حصل.. ولابد أن الست أم هارون هيه اللى قالت له عنك.. وأنا يدوبك أخدت الدكتوراة ورجعت علشان أشتغل مدرسة فى جامعة القاهرة.. وأنا جيت النهاردة أودع الحبايب كلهم..

ودق الباب وكانت الست أم هارون وقابلتها الدكتورة بالأحضان والقبلات.. قالت:

- متشكرين جدا يا ست أم هارون الدكتور ناثان عمل كل شئ.. ورفض ياخد فلوس رفض تماما حاولنا وأفهمناه أننا ناس أغنياء ولكنه رفض وقال لنا: الست أم هارون غالية عليه.. وهى التى أوصت عليه فى مكالمة تليفونية طويلة.. متشكرين جدا جدا.. وقد عانقت الست أم هارون الدكتورة ثم عانقت أمى التى قابلتها بمنتهى الحرارة والحب وقالت لها: أهلا يا غالية.. يا ست الحبايب نورتي.. يادى النور يادى النور..

الدكتورة: يادى النور يادى النور.. والله وحشتنى التحية ماسمعتهاش من حد فى الأربع سنين اللى قعدتها فى امريكا.. وتسللت إلى غرفتي.. ووضعت رأسى على المكتب ونمت.. ولابد أنهم قبل أن يخرجوا سألوا عنى فوجدونى نائما فتركوني.. ولاحظت أننى تغطيت ببشكير تقيل.. إذا دخلت ورأتنى على هذه الحال وكثيرا ما ترانى كذلك ولم تشأ أن توقظني.. مع أنه وضع مؤلم يوجع الرأس والعينين وقد شكوت منه كثيرا..

***

صندوقي الأسود 6

هذه هى المحطة التى أتوقف عندها مهما تحدثت إلى نفسي.. مرة واحدة فى رحلتى حول العالم سنة 1959 وبعد لقاء مع الدلاى لاما. راجعت نفسى ونظرت إلى الناس.. هؤلاء الناس يعبدون هذا الغلام الدلاى لاما يرونه مريضا.. ويرونه يستحم ويسمعون أنه تخانق مع رئيس الوزراء وأحيانا مع أمه.. ثم يشكو من نفس الطعام الذى تقدمه الهند للشعب الذى خرج معه من التبت. وليس من بينهم واحد يسأل: يعنى إيه نعبد هذا الشاب.. من هو؟ من أين جاء.. ما قوته ما ثورته؟ إنهم يعرفون هذا السؤال مثل كل المؤمنين بأى دين.. لأن الدين فكر بديل.. حقيقة بديلة.

فنحن نعرف أن هناك حقيقة مطلقة. وقوة مطلقة وإلها مطلقا.. ولكن لا نقدر على وصفها أو لمسها أو بلوغها فنصور لأنفسنا حقيقة بديلة.. أو ما يمكن أن نسميه: كأنها حقيقة. هى ليست الحقيقة ولكن هذه الحقيقة التى يمكن فهمها أو تستطيع فهمها.. وهى تكفى لأن تريحنا عقليا ووجدانيا. إننا لا نستطيع أن نرى الله.. هذا مؤكد.. والمؤكد أيضا أن نرضى أنفسنا بنوع من التفكير يعبر عن هذه الحقيقة. أى الحقيقة البديلة.

ولكن ليس لى أنا حقيقة بديلة.. أنا هذا الشخص الذى يتكلم الآن.. ولابد أن تفكيرى فى هذه المرحلة من العمر صغير مثلي.. ولابد أن هذا الفكر مثل ثوبى سوف يكبر أو سوف يتغير. وسوف أحدث به الآخرين.. وكما أن النبت لا ظل له. فكذلك الصغير المؤمن لا ظله. وإنما إذا كبر أصبح له طول وأناس يجلسون فى الظل.. وفى لحظات كثيرة أسأل نفسى يعنى إيه! يعنى إيه هذه الحياة.. ما المعني.. ما الهدف.. وكل أفكارى من هذا النوع ناقصة عابرة. وأحاول أن أطيل التفكير ولكنى لا أستطيع..

وأحاول أن أسأل زملائى عن مثل هذه المعاني.. ولكنهم لم يفكروا.. ولا يجدون داعيا للتفكير.. ولاحظت أنى فى حاجة إلى من أفكر معه. ولكن مثل هذه التساؤلات لأنهم زملائى وأؤكد لهم اننى أتظاهر بأننى أفكر وأننى أحاول أن أختلف عنهم وأننى مريض. وأننى سوف أصاب بالجنون. هل مثل هذه الأحكام لها أساس؟ ليس لها أساس.

هل مثل هذه الأفكار ضرورية. ليست كذلك واحد من

زملائى قال لي:

- إن بابا بيقول عليك فيلسوف يعنى إيه؟ واحد زميل آخر قال لي:

- أن خاله عندما جلس معى وتناقشنا قال: ليس بعيدا أن اصاب بالجنون.. وإنه لا داعى لصداقتى له.

هل أنا كنت جادا فى التفكير؟ أو إننى أتظاهر بأننى مختلف.. أو هل أنا أتظاهر بأننى مختلف حتى أكون وحدى بعيدا عنهم.. فأنا الذى أبعدت نفسى وليسوا هم الذين ابتعدوا.. ومرة أمى سألتنى قل يا ابنى أستغفر الله العظيم وأتوب إليه الناس اللى بتموت بيروحوا فين.. يتعلموا الحاجات دي.. أستغفر الله العظيم. ليه يا ابنى بس تجعلنى أفكر فى الحاجات دي.

ولم أكن فى ذلك الوقت قرأت فى الفلسفة ولكن الذى درسته فى المدرسة ليس كثيرا. ولذلك فهذه المعلومات القليلة ضارة لأنها أسئلة كثيرة ولا تجد لها اجابات مفيدة. وكيف أجد لها إجابة وأنا طول النهار أقرأ أو أذهب إلى البقال أشترى السكر والشاى والبن والحلاوة والأرز وإلى الأجزخانة أشترى الدواء.. أشكالا وألوانا.. فأين المكان والزمان الذى يناسب هذا التأمل.. وقد حاولت أن أسأل عمنا الشيخ عبداللطيف القصبى وهو أحد أصدقاء أبى وقد أوصاه أن يساعدنى إذا ما احتجت لذلك. ولاحظ الرجل اننى لا أطلب مساعدته.. والسبب خجلي. فكان هو الذى يدق بابنا وزوجته ويسأل وينتظر.

وفى إحدى الزيارات دخلت زوجته لتجلس مع أمي. وجلس هو

معى فى غرفتى الصغيرة. وسألنى ما الذى يشغلك يا ابني. فكنت أقول له. لماذا إذا اقترب الناس منى ضايقونى رغم أنهم طيبون ويحبونني. وكان الرجل يندهش ويقول: كأن الصداقة والمحب والمودة والغرابة تضايقك.

قلت: نعم.

قال: لماذا؟

قلت: قل لى حضرتك.

وكان يقول:

- بل العكس يا ابنى هو الصحيح. بعد الناس عنا حتى لا تكون علاقات وأواصر وقرب. وكنت أسأل. لأننى أراه يندهش وفى نفس الوقت لا أعرف كيف أدافع عن نفسي.. فعيناه تتهماننى فهو إذن يقول ما يقوله الآخرون.. إنسان غريب.. وهو غريب لأن أباه ليس موجودا معه يلاحقه بتصويب أفكاره أو توجيهه الوجهة الصحيحة.

وكانت كلمة (غريب). هى الكلمة الذهبية فأنا غريب. أو أشعر بالغربة والغرابة. فهل أنا كذلك.. أو أننى أحب أن أكون كذلك. أو إننى وجدتنى كذلك فأحببت ما اعتدت عليه..

ودار تفكيرى فى هذه المرحلة المبكرة من حياتي، دون العشرين. فى دوامة لم أفق بعدها. هو الشعور بالاختلاف.. ومن الضرورى أن أبقى كذلك. وكانت الغربة دوامة درت فيها.. دخت فيها.. أو كما كنت أقول فيما بعد إنها الثقب الأسود الذى

امتص حياتى كلها وهى صغيرة.. وفكرى كله وهو قليل.

هل قرأت مثل هذه المعانى فجذبتني. هل أنا أردد هذه المعاني. وأتمسك بها لأنها حقيقتى أو أنها الأفكار البديلة.. ليست عندى أفكار كثيرة ولا بدائل. ولذلك فأنا كثيرا ما حاربت بينى وبين اخوتي. هل صحيح ما تقوله أمى وأبى إننى مختلف.. وإننى بلا مشاكل.. بلا مطالب.. بلا مشاغل. وكثيرا ما سألنى أبي:

- بعد ما طلعت الأول أجيب لك ايه ويكون جوابي: ولا حاجة.. أى كتاب!

هل رسخت هذه الفكرة عند كل الناس لدرجة أن إخوتى حاولوا كثيرا أن يقتربوا لأننا إخوة.. ولم يجدوا أدنى رغبة من جانبي.. هل اتفقوا على أننى أنا الذى أريد. وأن أمى هى المسئولة عن هذا البعد أو الابتعاد الذى استغرق عمرى كله!

وكنت فيما بعد أحاول تأجيل تفكيرى الفلسفى الوجودى فيما بعد لهذه الفترة من عمري. لفترة الشعور بالأنا وبالخوف من الغير. مع أن الغير هذا لا يخيف.. أمى لا تخيف.. الباعة.. رجال المرور. جيراننا.. صديقات أمي. زملائى فى المدرسة. إنهم يلعبون ويضحكون.. وأنا لا ألعب ثم إن أحدا لم يكرهنى على اللعب أو على الضحك. وإنما هم اعتادوا على أن أكون بعيدا.. فلم يحاولوا أن يفتحوا الطرق بيننا. فأنا الذى اخترت أن أسكن فى شرنقة. وأننى يوما بعد يوم أجعلها كثيفة الجدران أى منعزلا أو سجنا انفراديا.. أنا وليسوا هم!

***

وفى مذكراتى التى كنت أكتبها: ظهرت عبارة تقول ولا أعرف من أين أتيت بها أن 1+1 لا تساوى اثنين أبدا. أقول كيف. فأنا إذا جلست مع أى أحد فإنه يأخذ من وقتى ومن تفكيرى ويشغلنى ويرهقني.. فبعد هذا اللقاء أشعر بالنقص الذى أخذ منى ما كنت حريصا على أن يبقى لى وحدي. وإذا أنا جلست إلى بنت.. وفى ذلك الوقت لم أعرف بنتا واحدة. ولكن ما يقوله زملائى عن البنات.

واحد+ واحدة مستحيل أن يساوى اثنين. يساوى أكثر من اثنين. فهذا اللقاء فرصة لكى ينفتح كل واحد فى نفسه حتى يبدو أكبر وأعظم وأبقى من كل إنسان آخر.. إنه يشعر بأنه أكبر من نفسه.. أو إنه نفخ فى نفسه.. تماما كما يحدث لذكر الطيور عندما ينفخ فيكون له حجم أكبر من حجمه لماذا لأن حجمه الطبيعى لا يغرى الطرف الآخر. فلابد من الكذب أى لابد من التزوير. والتزوير يجعله يبدو أكبر. وتصدقه الأنثى فى عالمنا.. وفى عالم الطيور فتبدو أكبر. وهو فى الحقيقة أقل. ولو لم يكن لديه هذا الإحساس بأنه أقل وأصغر وأضعف ما أحتاج إلى هذه الحيلة المسرحية.. فواحد+ واحد أكبر أو أصغر من اثنين!

وفيما بعد عرفت أننى مررت بكثير من المعانى الوجودية. أحسست بها. ولكن لم أستطع أن أتجمعها.. لقد احتجت إلى الفلاسفة الكبار يتناقشون ويضيئون.. وهذه الأفكار الكبيرة عندما قرأتها استقرت فى نفسى فقد وجدت لها قواعد.. بنية أساسية أقيمت عليها أفكار بديعة. فلم يكن انتقالى إلى الفلسفة الوجودية صعبا. بل كنت مستعدا لذلك.

فعندما تحدث الأديب لنكولن ويلسون عن الغريب. لم يكن غريبا.. وعندما أبدع الفيلسوف الوجودى سارتر فى وصف يده وأصابعه وعروقها وأنه عندما التفت إليها لأول مرة وجدها غريبة عجيبة كما أنه غريب.

وشيء غريب فمن كل ما قرأت عن الحرب العالمية الثانية هربت صورة الجنود الألمان الذين يلقون بهم من الطائرات فى بلاد اليونان ومعهم موتوسيكل وخريطة وبعض الكلمات اليونانية. كأننا نحن أيضا ألقينا فى هذه الدنيا.. فى هذا الوجود الذى نعرفه ومعنا خريطة. والحقيقة أننا ألقينا أننا سقطنا.. كما سقط أبونا آدم وحواء.. وأننا نحاول أن نتكيف أن نجد ما يجعلنا نعيش.. ونضيف كل يوم اسما أو معلومة.

ولابد أن يكون لمثل هذه العبارات معني.. صحيح المعنى غريب.. ولكن لابد أن يكون له سبب.

لقد جاء فى مذكراتى أننى تمنيت أن أكون ابنا بلا عائلة.. أن أكون لقيطا.. لا أعرف لى أبا ولا أما.. ولا أرتبط.. فالارتباط يضايقنى و يقيدني.. وأنا أريد أن أكون بعيدا فلا أنا من الأقارب ولا من ذوى القربى ولا تربطنى علاقة أو صلة أو وشيجة. كلها تذكرنى بما لقيه جيلفر فى بلاد الأقزام.. لم يكد ينام من الإرهاق حتى تكاثروا عليه كالنمل وشدوه بالخيوط التى جعلته عاجزا عن الحركة.. تماما كما رأيت النمل يقترب من لحم أحد الأفاعى ويقضى عليه.. لم أنس هاتين الصورتين أبدا.

والحقيقة أننى كنت أستسلم لهذه المعانى والعبارات وأتركها

كما هى على أن أعود إلى التفكير فيها وفى معانيها فيما بعد.. ولا أظن اننى عدت إلى مذكراتي.. وإنما تجاوزتها إلى هموم أخري.. واستبقيت هذه المذكرات إلى أن أحرقها فيما بعد.. لقد وجدتها مثل ملابسي - وأنا طفل - مدهشة مضحكة.

وأنا طفل ذهبت على قدمى إلى معسكر الغجر. هاربا من أمي.. فهى تضربنى كثيرا. لأسباب كلها تتعلق برغبتى فى أن أعرف. فآخر مرة ضربتنى قبل الاحتفال بحفظى للقرآن الكريم.. ودخولى مرحلة غريبة من الحياة.. وهى أننى لا يصح أن ألعب فى الشارع فأنا قد حفظت القرآن.. وإذا تشاجر زملائى احتكموا إليّ. طبعا ألا أكذب فقد حفظت القرآن وتكون النتيجة اننى أغضبت كل الأطراف.

ثم شاءت الصدفة أن اقتربت من معنى آخر. وهو أننى تمنيت أن أكون من أبناء الغجر.. إنهم يعيشون على حافة المجتمع يخيفون كل الناس. فمنهم من يسرقون ويقتلون ويهربون.. ولكنهم كل يوم فى مكان.. ولا تربطهم بالناس أي علاقة. إنهم على سفر.. إنهم فى حالة هرب دائم.. ذهبت إليهم أقول أننى لست من هذه البلاد وإنما هربت من بلاد إلى بلاد. وبسرعة أرادوا أن يربطونى ربطا نهائيا سعداء بانضمام واحد إليهم.. طفل سوف يكون رجلا.. وبسرعة وضعوا القفه فوق دماغى وطلبوا أن أمسك بطرف ثوب خالتي.. فهذه السيدة اسمها خالتى وهى تقول:

- ودع والبخت أشوف.. حظك وسعادتك أشوف..

ومضت ساعات وأنا أحمل القفه فوق دماغي.. وإذا نزلتها ركنت

رأسى إلى الحائط.. أى حائط ونمت.. وتزغدنى خالتى لكى أصحو وتضع القفة على دماغى والصدفة ساقتها إلى بيت جدي.. فأمسكوا بها لأنهم يبحثون عنى منذ أيام.

وانتهت المغامرة.. ولكن شعورى بأننى غجري.. بعيد.. غير مرتبط.. لا ينتمى لأحد.. وكنت أحسد أبانا آدم: فليس له أب ولا أم ولا خال ولا خالة ولا عم ولا عمة.. ولا حماة.. لا أحد. أو يريد أن يكون لا منتميا لا مرتبطا لا قريبا لا صديقا لأحد.

وبقيت زمنا طويلا مفتونا مؤمنا بالغجر. لدرجة أننى عندما قرأت فى الصحف الإيطالية أن ملكة الغجر قد ماتت. سألت وعرفت عنوانها وذهبت للعزاء وسألونى من أنت فقلت:

- غجرى من مصر جاء نيابة عن ألوف الغجر لتقديم واجب العزاء..

فأدهشهم أن يكون الغجر فى مصر بهذه القوة وهم لا يعلمون.

وصدر لى كتاب بعنوان (نحن أولاد الغجر)..

ولما رأيت فيلم (غراميات كارمن) بطولة ريتا هيوارث. صرت مفتونا بحياة الغجر..

ولما ذهبت إلى تشيكوسلوفاكيا وجدت الغجر كثيرين فكنت أحضن منهم واحدة بعد واحدة فنحن إخوة. وهم فى دهشة فليس بيننا لغة. وطبيعى أن يسرقوا فلوسى بمنتهى المهارة والسرعة.. ولما رأيت ملابسهم القذرة وحياتهم المنبوذة واحتقار الناس لهم.. وهنا فرق بين أن تكون غجريا لحما

ودما، وأن تكون غجرى المعني.. لا منتميا.. لا مرتبطا لا ملتزما..

واكتمل قرفى عندما رأيت بنات الغجر غانيات وضيعات.. إنهن جائعات يردن طعاما.. ولسن مشتغلات بالفلسفة يردن أن يعيش الفكر الغجري.. لا العيشة الغجرية..

فاختفيت كغيرى بالغجر إلى بقية الأفكار الكافرة الرافضة المعذبة!

***

صندوقي الأسود 7

لماذا اخترت قسم الفلسفة فى كلية الآداب.. أليس هناك مسابقة خارج المقرر وخارج امتحانات الثانوية العامة مسابقة فى كل العلوم وكان من نصيبى أن أكون الأول وأتذكر ما قلته لأستاذ كبير عرفت فيما بعد أنه العالم الجليل يوسف كرم ، قلت له عبارة فصححها بهدوء قلت:

- إن هذا هو المرجع الأمثل :

فقال لا تقل الأمثل وإنما قل:

- الكمال واكمل العبارة فقلت ترقبنى البرلمان وجامعة فؤاد.

وسألنى تريد أن تكون فيلسوفاً - لا أعرف كيف أكون

فيلسوفاً ولكن أعرف كيف أعرف.

فضحك ولما ضحك أضاء وجهه وظهرت عليه البراءة والطفولة والسعادة.. ووجدتنى فى قسم الفلسفة فى كلية آداب جامعة القاهرة.

أصبحت لقاءاتى مع أبى قليلة جدا بل لا يكاد هناك لقاء فأنا مشغول جدا ومعظم الوقت فى الجامعة في مكتبة الجامعة وأعود ليلا ملهوفا لعلى أستطيع أن أفعل شيئاً.. أشترى دواء أغسل أكوابا وأطباقا أجد مكانا هادئا أذاكر فيه أو أن تتناهى من تحت الغطاء الآهات المكتومة من أمى وأبي..

ولاحظت أن أمى تعاملنى بشكل مختلف كأننى رجل البيت فاحذر أمى فى أشياء أنا لا أعرف كيف أفعل فيها وأقول لا أعرف وتقول إنك يجب أن تعرف أسأل. وتعال رد على أسأل.

فلم أسأل عبارة تقولها أمى أن أسأل أنى فعلا دائم السؤال والفيلسوف دائم السؤال: ما هذا ولماذا وكيف وإلى متى ومن أين وإلى أين .

وكما قال لنا أستاذنا العظيم أن الموهبة هى بداية المعرفة.. أى كل هذه التساؤلات محاولات الإجابة يحتاجه الفيلسوف فى الصميم.. إذن ليس غريبا أن أحداً يعيش فى قسم الفلسفة.. ولما سألني:

- وما معنى الفلسفة وإذا تخرجت فما الذى تعمله..

قلت:

- مدرس فلسفة

- بس كده - ومدرس.. مدرس مثل مدرس الكتاب اللى يعيده يزيده ويقول ليلا ونهارا ومش كده.. والباب من أمامك ومن ورائك وزراء وقراء وليسوا أحسن منك ولا اذكى منك أن فلانا بك الذى هو وزير يقولون إنه لا يفهم وإنه لا يعرف يكتب اسمه ولكن لأنه غنى فقد وضعوا له كل الصفات التى تسمعها فيه ولكن لأنه فقر لا يلتفت إليه الناس وإنما يترحمون عليه.. ويبكون معه على مستقبلا الحزين.. مدرس.. يعنى يقرأ فى القرآن.. وهو يسمونه مستقلا.. حتى لو كنت سوف يفهم شئ يملأ ذهنه والله أبدا أبدا..

وكان دخولى الجامعة من أسوأ أيام حياتى دخلت الجامعة واضعا يدى فى جيوبى لا غرور ولكن أصابنى نوع من الهرش يكاد يشبه الجرب.. ووضعت اليدين فى جيوبى حتى لا أصافح أحدا ووصف الطبيب الحال بأنها حالة نفسية صعبة وحالة عصبية حادة هى التى جعلت هذا الأكلان وهذا الالتهاب فى الجلد وعلى الشفتين ولما حاولت سهوا أن أصافح الزملاء بعد أن صافحوا تراجعوا وسحبوا أيديهم بسرعة خوفا من العدوي.

وامى لم تقتنع بعد أن دراستى للفلسفة هى من أجل أن أكون مدرسا فى الجامعة وأحيانا ألقى محاضرات فى الأزهر.. كان يوما أسود وأحسست أنها فشلت تماما وأنها عاشت تدعو الله ليلا ونهارا أن أكون وزيرا مثل إبراهيم باشا عبد الهادي.. ولكن وزير أنا لا أعرف الطريق إلى الوزير أو إلى الوزارة ولا هى قضيتي.. قضيتى هى أن أدرس وأذاكر ويكون ترتيبى الأول وهذه هى الحلقة التى وضعتها أمى فى أذني..

وهذه الحلقة ليست حلقة عادية وإنما بها ميكروفون والميكروفون ينقل أنفاس أمى ليلا ونهارا وهى تدعو الله وترجوه ألا يجعلنى مدرسا أبدا.

- وزير يارب يارب وليس كثير عليك!

ولم تكن سنوات الجامعة الأربع سهلة شاقة حالتى النفسية سيئة والوقت الحقيقى عندى ليس كافيا ثم إننى لم أستطع أن أحضر كل المحاضرات وأتعرف على الأساتذة لا وقت عندى فاكثر الوقت ضائع على أمى وعلى أبى وعلى استدعاء الأطباء وافطارهم وعمل الشاى لهم ثم الجرى إلى الأجزاخانات هنا وهناك أبحث عن دواء جديد يؤكد الطبيب أن المريض إذا أخذه ثلاثة أيام بانتظام فسوف يذهب المرض..

سعداء بهذا التشخيص وهذا السحر الذى أمر به الطبيب.. وتوالت الأيام الثلاثة وبعدها ثلاثة وبعدها.. ولم يظهر أى تحسن على المريض ويتساءل الطبيب عندنا بقوله من أنه لم نضبط ساعات الدواء وفيها أن الدواء لا يؤخذ على معدة قد امتلأت ولا على معدة خالية من الطعام.

يعنى الدواء ممتاز ولكننا نحن الذين أفسدنا مفعول الدواء إذن دواء آخر تركيب وهذا ليس حاضرا فى الأجزاخانة وإنما يحتاج إلى وقت يصنعه الطبيب بالنسبة التى قررها الطبيب فى الروشته وقت آخر يجب استقطاعه من المذاكرة ليلا ونهارا.

واحد سألني، أنت كافر!

قلت: لا

قال: لا كافر بالله

قلت: لا - أنا مؤمن بالله

قالوا لى إنك رحت الكنيسة وصليت فيها

رحت الكنيسة صحيح لكن صليت لا ولا أعرف ماذا يقولون فى الكنيسة فلغة القساوسة هى العربية الركيكة.. أو الترجمة الغريبة للأناجيل والعهد القديم لغة لاهى عامية ولا هى فصحى ولكن أنا أذهب بمناسبة فرح أحد الأصدقاء أو رافقت أحد الجواهرجية وهم أباء بعض أصدقائنا.. واعظ يقول كلاما أخلاقيا رقيقا ويتحدث عن الفقيد وأثره فى الدنيا وفى الكنيسة بصفه خاصة عن مساعدة الفقراء والمحتاجين وعن روح المسألة فكثير من الحاضرين مسلمون جاءوا يقدمون العزاء ويكشفون عن حزن حقيقى على الفقيد.

وقال: وأنت كافر مرة ثانية

قلت: مرة ثانية لماذا؟

لانك تتردد على المعبد اليهودى قالوا لى إنك كنت والخاخام الوحيدين اللذين أديا الصلاة صحيح ولاّ لا..

صحيح ولكن لم أصل . ذهبت لأنتظر انشغال الحاخام بالدعاء وبالصلاة ومن ورائه اليهود الذين جاءوا للصلاة وهذه الأديان ليست أمراضا معدية.. إننا نفزع من وجود الكنيسة.. وغيرنا يفزع أيضا من وجود هذا العدد الكبير من المساجد الصغيرة والتاريخية والزوايا.. ألوف الزوايا يقف فيها الخطباء يصرخون بأعلى ما فى الميكرفون من غضب ويوم الجمعة عندنا يشبه يوم القيامة شخط ونطر وكل الميكروفونات تلتقى فوق فى السماء وتشترك في اللعنات التى تستحقها ولا يشجعها من الشبان المسلمين أنا وأنت وغيرنا..

وقال صديقى ويبدو أنه حشد كلاما كثيرا شجعته امه وأمى على

أن اقوله ليكون كلامه تحذيرا لي.. لأنه يحبنى :

- لماذا لا تخاف من عشرة هؤلاء الجبناء والمتعصبين.

- من؟

- الأقباط إنهم لا يحبوننا وإنهم متماسكون جميعا. قوة حقيقية فى مواجهة غير منظمة وهى قوة المسلمين.. واليهود رمز الشركاء التجارى وعند الكلام عن الدين فهم أكثر تعصبا لدينهم وتعصبا ضد ديننا ولكن الفرق بيننا وبينهم إنهم لا يقولون واننا لا نكف عن الكلام أنهم من المواجهة لانهم لا يجدون المساحات وتصفية الحسابات وإقفال الملفات علمهم البارع الكثير من الأقباط الحذر والخوف ولابد أن يكونوا أصحاب المثل الذى يقول: من خاف سلم وهذا شعارهم أيضا إلى حين..

يعرف أن عندما طلب من شوتيل كراسة الفيزياء أمضى ليلة كاملة لينقلها من كراسته هو وقد استغرق مثل هذا العمل ساعات وأياما قدمها لى ولم ينتظر أن أشكره تركها حلا لمشكلتى وهذا يكفيه.. تصور حاول أن يفهم معنى هذا السلوك.

معناه أنه إنسان شهم يساعد إنسانا فى محنته لم يتسع وقته لكى يحضر كل المحاضرات ويكتب أنه إنسان نموذجى فى المساعدة الإنسانية وبس!

قلت له:

- انهم يحبون أمى جدا مع أنها سيدة مسلمة وإيمانها ودينها

بسيط.. فهى لم تتعمق فى الدين وإنما تؤدى ما يؤديه طفل فى الصلاة والصوم وتشكر الله على هذه النعمة.

- قلت: ولماذا لا يعفى الذين يذاكرون والمذاكر يسهر الليل.. ويقصم الظهر ويضعف النظر..

قالت أمي:

- كفاية لخبطة فى الدين.

- ليست لخبطة وإنما هى محاولة للفهم..

- اذن اسأل بابا وهو رجل يعرف فى الدين ويؤم الناس للصلاة ويخطب فيهم اسأله من المؤكد أنه يعرف..

ولم أسأل أنا ولا هى سألتنى إن كنت سألته لقد وجدت السؤال سخيفا سؤالا عياليا ولا أحب أن أبدو كذلك.. ولا أن أكون زى البنت كما تصر أمى على أن أكون. وأجد أن البنت التى تتخيلها أمى لا وجود لها لا عند البنات ولا عند البنين فالذى تراه سلوكا كالبنات هو أننى أنظر إلى الأرض ولا أفتح عينى فى عين واحدة ست.. وتضاحكت زميلتى وقالت إذن الطريق الوحيد أن تشوفنى وتكلمنى أن أضع صورتى على الأرض..

وترى أن البنت المحترمة هى التى تضع صورتها على الحائط وعلى الأرض. وصارت مثلا .

وأبى كان يقدمنى للناس على أننى فيلسوف العائلة.. أو الفيلسوف الصغير وأنا أرى أن هذه مبالغة شديدة. فأنا لست فيلسوفا وإنما طالب يدرس الفلسفة قد يحبها وقد يلعنها ثم هناك أكثر من فلسفة أول فلسفة

لم أكن أعرفها هى الشيوعية فلسفة الطبقة الكادحة من أجل المزيد من الطعام والحرية حرية التجارة والبيع والشراء والحركة والعقود وكانت معلوماتى عن الفلسفة الماركسية تافهة لا تمكنى من أن أدخل فى أي مناقشة سياسية وكان ذلك إيذانا بأن أدرس الشيوعية.. ونحن فى قسم الفلسفة إما وجوديون وإما شيوعيون.. والوجوديون هم تلامذة الدكتور عبد الرحمن بدوى والشيوعيون تلامذة الدكتور لويس عوض ورغم هذا الخلاف الذى لم يكن واضحا عندنا كنا نلتقى على العشب بين المكتبة العامة وبين المدرجات وعلى العشب نأكل سندوتشات الفول والطعمية ونسمع أسطوانات بيتهوفن وفاجنر وقد تكونت صحيفة اسمها (جمعية الحراموبون) أى الفوتوغرافى البدائى جدا.

من الذى جمعنا؟ لا أعرف: وإنما نحن طلبة الفلسفة لابد أن نلتقى وكان للشيوعيين رأى يخالف الدولة سنة وراء سنة وأحد الشيوعيين كان صديقى جدا دخل وخرج بعد تسع سنوات من شبابه أجمل ساعات عمره خرج من السجن أكثر قوة وصلابة واستعدادا لأن يعود إلى السجن مرة أخرى من أجل قضية أخرى أو لنفس القضية.

أذكر أننا - كمال الطويل ومأمون الشناوى وكمال الملاخ - نتناول العشاء الخفيف من الذى أتى به فى شقه.. لواحد من الأصدقاء. عندما دق الباب وانفتح على ثلاثة من الضباط يتقدمون فى غاية الهدوء والأدب ويسألون:

- مين فيكم صلاح حافظ الصحفى الممتاز؟

فوقف صلاح وقال :

- أشوف وشكم على خير ورأى وجوهنا بعد تسع سنوات ولم تكن لا هى فى خير ولا هو..

وبمنتهى الصراحة والصدق أقول أننى فتنت بالفلسفة الماركسية اعجبنى منطقها وقضاياها في الاقتصاد التى تفضى إلى السياسة فالسياسة والاقتصاد وجهان لعملة واحدة وكم تمنيت أن أعيش فى مجتمع شيوعى لا أتكلف أى شئ وإنما الحكومة هى التى تأتى لى بالكتب وأسطوانات الموسيقى هم الذين يفعلون وأنا أتلقى، والشيوعيون يحترمون المثقفين جدا صحيح أن المثقفين ليسوا طبقة. وإنما هى فئة فقيرة وقد أرادها الحكام أبواقا لفلسفتهم فهربت الأبواب ودخلت السجون..

وقد زرت إحدى المستوطنات فى إسرائيل بالقرب من مدينة عكا واسمها (حكده) وفيها يعيش الأديب الإسرائيلى الكبير ماموش عوزه.. لم يسعدنى ما رأيت.. الوجوه حزينة كئيبة والجلوس معهم كأنهم فى جنازة بأن تسأل من هو الفقيد الذى أصر كل هؤلاء الناس على الحزن العميق المنادى على خوفهم والذى جعلهم يمشون وكأنهم نيام ووقفت فى طابور النيام نيام.. لكى اقدم طبقا واملأه بالعدس وبعد أن أفرغ من تناول العدس أقف فى مرة أخرى انتظارا لدورى فى غسل الأطباق ووضعها فى مكانها هؤلاء الناس عاشوا وسوف يموتون من أجل الجماعة ولا يملكون أى شئ حتى ملابسهم ملك للمستعمرة إنهم مثل جماعة الأطهار التى كانت على أيام السيد المسيح وكانت تتردد عليه.. وكانوا لا يلبسون الذهب لأنه حرام ولهم اجتهادات فى فهم التوراة وشرح التلمود وهناك يهود ليسوا يهودا مثل يهود مصر ويسمون أنفسهم (القراءين)

أى الذين يقرأون أسفار موسى وهى الأسفار الخمسة الأولى فى التوراة . وهناك جماعات أخرى أكثر تطرفا مثل جماعة اناخورا كاركام التى ترى أن إسرائيل قامت على باطل والمفروض أن تقوم إسرائيل بعد أن يأتى المسيخ الدجال الذى يفسد فى الأرض حتى يدخلوا كلهم جهنم.

وقد صافحت من لا أريد أن أصافحه أو أن أراه بيجن ومناحم وقتلنا منهم وقتلوا منا وأسرنا وأسروا وهم لا ينسون ولا نحن أيضا.

أذكر أننى كنت فى نيودلهى عندما دعانى إلى العشاء الملحق الصحفى بالسفارة الأمريكية وكان الغذاء فى بيته وفوجئت بابنه الصغير (سبع سنوات) امسك سكينا وجاء يقتلنى وفزعوا وسألوه: قال إنهم طردونا من مصر!

ولم يكن الطفل مدفوعا من أحد وإنما هذا دينه والخروج من مصر هو أكبر حوادث التاريخ اليهودى القديم ويخشون أن نطردهم مرة أخرى إذا لم يحققوا السلام بيننا وإلا فلا حياة لهم ولا سلام معهم..

وسألتنى أمى وهى فى حاجة من الاضطراب لعلها أمضت ليلا تفكر فى هذا السؤال وتخشى من إجابة معينة سألتني: أنت قابلت ليليت بنت اليهودى عبد الرحمن عامود .

قلت:

- نعم..

قالت:

- كيف ولماذا لم تقل بهذا اللقاء وسكت عليه سنوات طويلة هل هناك سبب؟

- ياه يا ماما حكاية قديمة قوى لقد احتاجت إلى سبع سنوات لكى تصل من سريرى إلى سريرك.

- يعنى قابلتها ازاى دى يهودية

- قابلتها زى الناس: يهودية أو مسلمة لا يهم لأن المطلوب منها هو أن تبحث لى عن كتاب وهى لها مكتبة فى شارع عماد الدين..

المكتبة صغيرة والإضاءه فيها ضعيفة جدا مع أن المحلات المجاورة لها كلها مضاءه بالكهرباء إلا هذه المكتبة والسبب أنهم يعملون نهارا توفيرا للكهرباء وهم عادة يتخيلون أسبابا مختلفة لأحلام المكتبة.. منها انها شخصية نظرها ضعيف وهى تحب أن تتردد على المكتبةِ وليس هناك إلا هذه الملاحظة - ولم يفعل صاحب المكتبة شيئاً..

ولم يكد الضيوف يخرجون حتى عادت الكهرباء إلى البيت وأريد أن أعرف كيف حدِث ذلك.. معناها أن العفاريت قد عاودت الظهور وهى تقوم بأعمال غريبة لتؤكد لنا إنها موجودة.

***



8 صندوقي الأسود

وأهم ما فى هذه الفترة من حياتى ذهابى إلى الكُتاب.. فقد كان الكُتاب حياتي.. كل حياتي. كرهته وأحببته.. ثم كرهته بعد ذلك.. الكُتاب هو المدرسة البدائية.. رجل واحد يقوم بتدريس كل شئ فى بيته وهو غرفة صغيرة.. وكل شئ هو حفظ القرآن الكريم. ونحن أميون لانقرأ ولا نكتب..ولا نعرف معنى إيه كُتاب.. إنه مكان نتعلم فيه.. يعنى نتعلم يعنى نسمع كلام سيدنا.

وسيدنا هذا هو المدرس وصاحب الكُتاب وهو المدرس وصاحب الكُتاب وهو وحده الذى سوف يعلمنا. ولانعرف كيف يفعل ذلك. ونحن لا نقرأ. وسيدنا لا يقرأ لأنه أعمي.. فكيف؟ لا أعرف.. ولا أبى قال لى ولا أمي. ولم أجرؤ أن

أسأل أحدا.ومن بعيد عرفت مكان الكُتاب. وكنت أنظر إليه من بعيد. خوفا من أن يضبطنى أحد وأنا أتسلل إليه.. الكُتاب صغير على الشارع يظهر منه نافذة وباب.. والشارع قذر جدا. أمام النافذة أكوام من القمامات. وفى يوم تشجعت لكى أرى أكثر. ورأيت سيدنا. أنه رجل عجوز قصير القامة فى حالة تكشير دائم. طبيعى فليس فى حياته ما يبعث على البهجة.. وبعد دقائق ظهرت بنت صغيرة شعرها منكوش شاحبة الوجه.. ويدها صغيرة كأنها رجل بطة أو كأنها عجينة. وهى التى تسحب سيدنا.. ولم أتبين بالضبط ماذا قال لها.. لابد أنه شتمها لأنها تركته وحده. ولكن البنت قد اعتادت على ذلك فلم يظهر عليها أى اثر.. ولابد أن هذا الشعور العام الذى يلقاه سيدنا. ولابد أنه يشخص وينظر والناس لايسألون عن ذلك لأنهم اعتادوا.. وهو قد اعتاد على عدم مبالاة الناس.. إذن الطلبة الصغار هم الذين سوف يسألون وسوف يترك فيهم سيدنا الأثر والألم.. وهم بذلك يعوضونه تماما عن الذى يلقاه فى بيته وفى أسرته الصغيرة التى هو لايراها كأنه شبح.. وهى لا تسمعه.. ولابد أن أسرته أو زوجته تقول: على إيه: أى ما الثمن لكل هذا العذاب مع هذا الرجل. ولكن لماذا؟ زوجته لابد أن يكون السبب أنها لم تجد غيره.. أو أن اهلها هم الذين أقنعوها.. ياترى اقنعوها بماذا؟ وكيف أقتنعت أو ليس من الضرورى أن تقتنع أنها تزوجته وبذلك اختصار لمتاعب أسرتها وتكاليف المعيشة. فلابد أن أسرتها أيضا لاتقل جوعا عن أسرة سيدنا.. ولم أر زوجته حتى الآن.. إذن غدا أعود.. فباق على الذهاب إلى الكُتاب أسبوع..

وذهبت. ورحت انفض التراب والطين عن ملابسي. فقد كانت غرقانة وكانت البهائم ذهابا وايابا تطرطش على ملابسي. والناس يقولون:

- يا أفندى إيه اللى وقفك هنا..

إذن أنا شكلى أفندي.. إذن أنا مختلف. مع إننى أرتدى جلبابا وشبشب ككل الناس.. إذن هم بعض الخفراء أو الخدم الذين يعملون مع والدى فى القصر الذى يملكه عز الدين باشا يكن أخو عدلى باشا يكن الذى كان يعمل عنده أبى مفتشا للزراعة فلما توفى انتقل إلى العمل مع نعمت هانم يكن أخت عز الدين يكن..

وأمام إلحاح كثير من عرفونى أجلت رؤية الزوجة إلى الغد. ولايزال الوقت كافيا لذلك. وفى اليوم التالى أقنعت عددا من زملاء الكُتاب ذهبنا.. ووقفنا أمام الباب. انتظرنا جاءت زوجته صارخة. فقال أحد الزملاء إنه يضرب زوجته. كيف؟ قالوا: يمسكها من ذراعها وينهال عليها ضربا بالعصا!

وكان ذلك كافيا فى ذلك اليوم. وانشغلت طول الليل أفكر وأتخيل كيف يضربها. وكيف لاتتخلص منه. وكيف أن أحدا يسمعها ولا يسرع لانقاذها. وابنته الصغيرة تنتظر دورها. يضربها وتصرخ وتبكي. وأمها لاتتقدم لتدافع عنها. لقد اعتادوا على ذلك..

ولم أحاول بعد ذلك أن أنتظر لكى أرى زوجته. فبعد أسبوع سوف أرى كل شئ. وتضايقت أننى سوف أرى هذه الأشياء: ضرب

وصراخ وبكاء وكل يمشى فى الشارع كأن أحدا تحت الأرض يتوجع ويتلوي. وأن رجلا جبارا يمسك عصا. يضرب ولايهمه أين تنزل عصاه.. لايهم. هو اعتاد على البكاء والصراخ.. والبنت وامها اعتادت على الشتيمة والضرب.. وأزعجنى أن يكون ذلك فى غرفة واحدة.. نحفظ القرآن وضرب البنت وأمها فى مكان واحد.. وسيدنا أعمى يهدد ويطرح بعصاه يمينا وشمالا ياتصيب ياتخيب. وياترى سوف يضربنا سيدنا.. بالطبع لا .. أنا ابن المأمور والثانى ابن العمدة والثالث ابن صاحب وابور الطحين.. والرابع قريب له.. ربما هذا هو الذى يستطيع أن يضربه.

وبعد غد سوف نرى كل شئ أو عينة من ذلك!

ووجدتنى أريد أن أفهم من والدى معنى هذا الكُتاب.. وقد ذكرت له كل ما عرفت. ولم أفهم ما الذى يضحك أبي.. ثم لايرد .. وينادى الخادم ويطلب إليه استدعاء صاحب وابور الطحين.

وجاء رجل ضخم على ملابسه دقيق.. ومسح وجهه وأخرج منديلا كبيرا من جيبه ثم يمسح وجه الذى تهلل استعدادا لما سوف يقوله والدي.. ويبدو أن الخادم قد أخبره بكل ما سمع. فإذا به يتجه لى ويقول لي: سيدنا رجل طيب وإذا كان يضرب مراته فمراته طول الوقت يبحث عنها فتكون عندى فى الوابور والبنت بتلعب فى الحارة أصلها بنت صغيرة .. هاها.

ويقترب من والدى ويهمس فى أذنه ويضحك الاثنان. ولم أفهم ما الذى سوف يفعله سيدنا هل سيضربنا مثل زوجته وابنته واستبعدت أن يفعل شيئا من ذلك.

وفى ساعة مبكرة أيقظتنى أمي.. وقد أعدت السندوتش من

الجبنة البيضاء التى برعت فى صناعتها لدرجة أن الكثيرات من صديقاتها يطلبن إليها كيف تكون الجبنة بهذا الجمال وهذه الطعامة وكانت أمى لاتمل هذا الإطراء عليها ولما قلت لها أنا أيضا أسعدها أن يكون هذا رأيي. وكنت كل يوم أتناول السندوتش بالجبنة وهو أفضل وألذ من السندوتش الذى يشتريه الزملاء من الرجل الذى يقف عند المدرسة الابتدائية.

ودارت الأيام كلها متشابهة تماما. الصباح الباكر نذهب إلى الكُتاب وسيدنا مايزال نائما وتطلب منا زوجته أن نساعدها فى كنس البيت وفى تقطيف الملوخية وتقميع البامية والخبز الذى يجب أن يكون ساخنا. وكذلك الفطير المشلتت الذى يتناوله سيدنا مرة كل أسبوع والفطير بقدر ماهو لذيذ، هو قطعة من العذاب.

فلا تكاد تقترب زوجة سيدنا منا حتى تكون له رائحة جميلة جدا تلخبط.. فعلا أنا تلخبطت وأنا أقرأ فما كان من سيدنا إلا أن ضربنى بالعصا. وكاد يقتلع إحدى عيني. فالرائحة قوية نفاذة.. ويبدو أن سيدنا لم يلاحظ أن العصا لم تصطدم برأسى أو عنقى فقال: أنت ياولد يا أنيس.. أنت فين.. تقدم قليلا.. أبوك موصى عليك إذا لعبت أن أضربك وإذا لم تنصلح استدعى أباك ليتولى هو ضربك.. اقترب حتى أضربك بدلا من أن أضرب زملاءك .. اقترب.

وبدلا من أن أقترب رفعت ذراعى لتصطدم بها عصا سيدنا. ولاحظ ذلك فقال: اقترب بجسمك لابيدك اقترب وإلا شكوت إلى أبيك.

ولكن ما الذى فعلته.. لا شئ أكثر من الدفاع عن النفس وأنا

أخشى أن أجد عصاه فى عينى وأنا لا أسخر منه وإنما أنا أدافع عن عيني..

ولم أجد فيما حدث سببا كافيا للشكوى من سيدنا.. وفى يوم حاول سيدنا أن يعاقب أحد الزملاء فنزلت العصا على دماغى أنا.. فصرخت.. وقد اعتدنا على ذلك فسيدنا أعمى ورغم أنه يعرف مكان كل واحد منا ويضربه فلا يخطئ.. وهذه إحدى المرات التى طاشت فيها أيدى سيدنا..

ولما سألت أمى عن هذا الذى أسال دمى فقلت لها، ولم تصدق. وخيل إليها إنى أخطأت فى شئ.. فبعثت من يسأل.. وقيل لها إنه سيدنا..

رأيت الأطفال يقفون ويكلمون آباءهم. ويتناقشون صدا ردا. واندهشت فأنا لا أستطيع ذلك. وقد حدث كثيرا أن أحنيت ركبتى وقلت حاضر يا ماما.

يعنى أنا آسف ولن أعود إلى هذا ابدا.. أما أصدقائى فهم يرفضون ويعارضون ولكن أحدا من الآباء والأمهات يواجه الأطفال بالرفض النهائي.

فمثلا صديقى إسماعيل أمه تركية ويقال لبنانية ويقال إيطالية ويقال يهودية وهى سيدة لطيفة وظريفة جميلة كريمة.. فهى عندما ترى أحدا من أصدقاء إسماعيل تحتفل به وتسأله عن بابا وماما وعن المذاكرة. ويكفى أن يكون صديقا لابنها إسماعيل. وسمعت حوارا هكذا:

ماما أنا عاوز فلوس علشان فيه رحلة للمدرسة الأسبوع القادم.

- كم يوما؟

- أسبوع ياماما..

- عاوز قد إيه يا ابني؟

- عاوز جنيه..

- سوف أعطيك اثنين من الجنيهات فقد تدعو أصدقاءك إلى غداء أو عشاء.. لاتنس.. أصدقاءك هم كنوز الحياة. سوف تحتاج إليهم ويحتاجون إليك.. إنهم فى أحيان كثيرة أحسن من إخوتك ومن أولاد عمك.

ماما أرجوك "ويتلفت يمينا وشمالا" ماما.. صديقى فؤاد فقير جدا ويتمنى أن يشترك فى هذه الرحلة.

- حاضر ياحبيبي. بس كيف تعطيه الفلوس؟

- أنا ادفعها.. وأقول له إنها دعوة مني.. وأنا دعوت شوقى لنكون معا..

- وأنت دعيت شوقي..

- لا..

- لا أفهم.. لايتصور أنه الوحيد الذى دعوته بمناسبة عيد ميلادي..

- ولكن عيد ميلادى مضى عليه خمسة شهور!

- حكاية خيالية ياماما.. وحيلة لكى أجعل لهذه الدعوة مناسبة.

- أوكي. أشكرك يا ابنى أنا أحب مثل هذه المواقف. حاول أن

تدعوه مع بقية أصدقائك إلى غداء أو عشاء.

- حاضر ياماما.. شكرا جزيلا..

ومثل هذا الحوار مع أم صديقى عبدالتواب وكنت قد سجلت هذا الحوار فى مذكراتي. ولم تعجبنى الطريقة التى كتبت بها الحوار بين عبدالتواب ووالديه فكانت المناسبة عيد ميلاده..

ولم انس هذا الحوار للمعانى التى تدفقت فى دماغي.. وأذهلتنى وأغضبتنى ولم أنم ليلتها. وعلى الرغم من أننى لست طرفا بل لايمكن أن أكون طرفا.

الأب: ياعبده.. ياواد ياعبده. الله أنت انطرشت. تعال ياولد.. هنا أصحابك فى انتظارك أنت أعطيتهم ميعاد ونايم قوم يابن الكلب.

وقام ابن الكلب. وقفز من السرير للقائنا.

الأم: خذ المشط وصلح شعرك.. شكلك زى العربجية.

أنت لاتشبع من النوم. كلهم موجودون وزى الفل.. ملابسهم انيقة.. والأولاد فى غاية الأدب والاحترام ولما عرفوا أنك نايم قرروا أن يعودوا إليك بعد ساعة. ولكنى أنا اللى طلبت منهم البقاء فسوف القى بك من السرير. أنت ياعبده يا ابنى اغسل وشك وحط شوية كولونيا ريحتك كلها عرق زى الزفت قوم ياسى زفت.

وقام سى زفت ليجدنا نضحك.. وكان أبواه فى حالة غضب شديد.. ويهددانه برفع أيديهم فى الهواء ويتهامسان كأنهما يقتسمان الشتائم.. شتائم له هو وشتائم لليوم الذى ولد فيه. وطللت على الأبوين وعلى الصديق. ولكنهما حاولا أن يشغلونا بأى شئ آخر.

الأب: طبعا مفيش واحد خاب خيبة الواد ده..

ـ خاب ليه.. أنا شايف أنه زى الفل.. وهو بيذاكر وينجح. مفيش أحسن من كده.. على فكرة خاله خاب زيه كده..

الأم: لا ياعبد العظيم الولد بيذاكر وينجح وكان نجاحه معجزة فقد مرض وضربته عربية فنام فى السرير مجبسا شهرين.. كان بيذاكر فى المستشفي..

ـ الكلام اللى زى ده هو اللى مخسر الواد.. ودلعك الماسخ له.. وعلشان ماهو ولد واحد يبقى أجسن واحد فى الدنيا حتى لو جاب 50% .

ـ لامش خمسين دول سبعين فى المائة. وقد اعتذر ووعد بأن يكون الأحسن.. ووفى بوعده.. ولم يتلق منك مكافأة على نجاحه..

أحد الأولاد: يا أونكل إنه أول المدرسة وهو لم يحصل على 70% وإنما على 90% .. ألم يقل لكم ذلك..

الاب: ولا اتنيل وقال لنا أى حاجة.. أنه ولد رأسه فى الأرض زى الحمار..

ويقول لابنه الذى أخذ دشا وارتدى ملابسه الأنيقة وخرج علينا فى غاية الأناقة واعتذر عن التأخير ولم يذكر لنا الأسباب.

الام: هو تأخر لأنه تناول العشاء أمس وكان العشاء من الوزن الثقيل فنام طويلا ثقيلا..

وقلنا هيا بنا إلى النادى إنهم فى انتظارنا..

هو: والبنت فوزية موجودة.

قلت: لا أعرف..

قال أحد الزملاء: إنها هى التى دبرت الرحلة. وهى التى تشرف على كل شئ.. وهى حبيبة القلب.

وفجأة انفتح الباب وهجمت الأم علينا وهى تقول: فيها بنات يامساخيط يا أولاد الكلب. أنت اللى بيقولوا عليك عاقل .. آه.. علشان كده مش عارف يذاكر..

الأب: أيوه كده يا ابن الكلب يامنحط وبتعرف بنات وأصحابك المحترمين أولاد الناس الطيبين بيجيبوا لك بنات.. واللى بيحب بنات اسمه إيه يا أساتذه.. طبعا انتوا عارفين اسمه يبقى إيه..

الأم: بلاش.. الأولاد مالهمش ذنب هو الوحيد اللى بيعرف بنت والله أعلم البنت دى شكلها إيه..

أنا : ياطانط.. الزميلة فوزية أبوها وزير الزراعة وهو رجل طيب نظيف وشريف ولها إخوة كثيرون فى كليات الطب والهندسة.. والكلام اللى يقال عيب جدا وإهانة لزميلة كلنا نحبها ونحترمها.. ونحن مادمنا قد وصلنا فى الكلام إلى هذا المنعطف الشنيع فلابد أن نمشى ولا نعود مرة أخري.. باى باى يا أونكل وباى باى ياطانط..

وخرجنا جميعا وكأننا نحن أولاد الكلب.. فضيحة، لاشك. وهذه الفضيحة جاءت مبكرة أما صديقنا فلم ينطق بكلمة وإنما أحنى رأسه كزهرة ذابلة. ومن حين إلى حين ينظر إلينا يريد أن يعرف أثر هذه البهدلة فى نفوسنا. وكان ذلك واضحا.. فمن الصعب أن يخفى الإنسان فشله.. وقد فشلنا تماما.. وصديقنا سكت تماما فلا جدوى من الكلام ونحن أيضا سكتنا. ونريد ألا تكون الفضيحة بهدلة إذا أحد منا نقلها بحسن نية أو بسوء نية. والفضيحة تسعد الناس.. يسعدهم

أن يسقط واحد فى العار. ويحمدون ربهم على أنهم لم يسقطوا مثله. ولاتزال النميمة ألذ أطعمة الشماتة.

وبقيت مشكلة جديدة بأن أحد زملائنا جاء فجأة. ونظر إلينا جميعا وحيانا. واقترب منى وسألني: فيه إيه؟

- كما تري..

- أرى وجوها مكفهرة. وأنا أعرف الأب.. إنه لايطاق.. أليس كذلك..

- قلت له: بلي. ولكنى لم أكن أعرف..

- قال: بل تعرف فقد جئنا هنا عشرات المرات وبهدلنا ولكنك كنت سرحانا ولم تتابع أى شئ.. فى إحدى المرات رماه بطبق فجاء فى دماغك.. هل نسيت؟

قلت: آه الآن تذكرت. تحب تشوف صورة أخرى مضحكة.

ولكنك سوف تجد فيها تغييرا وعذرا. والتغيير لكم والعذر لي. إننى أهرب إلى بيوت الأصدقاء وأنت هنا وانتظر هناك واتغدنى فى بيتنا ولا يسألنى أحد إن كنت الساكن الجديد أو كنت كشاف النور.. ولو حدث أن جئت بواحدة صاحبتى يسبقنا أبى ويفتح الأبواب والنوافذ وأعد الفراش والشبشب وأشار إلى أن الحمام جاهز.

- يعنى إيه؟

- ليس على يقين من أننى ابنه..

- يعنى إيه؟

- يعنى إيه؟ أقول لك.. أبى رجل شكاك فى كل شئ حتى فى العلاقة التى بينه وبين أمي.. وهو يحب الأرقام وقد حسبها بالأرقام فقالت الأرقام اننى لست ابنه.. فقد حملت بى وأنه قد سافر إلى الأرجنتين يشترى لحوما.. وعاد.. ولما عاد كانت أمى حاملا.. وأشارت إلى بطنها فامسك ورقا وقلما وحسبها وقال لها كيف؟ هذا مستحيل. لست أنا أبا لهذا الولد أو البنت.. لأن كذا وكذا.. وعاشت أمى معه عشرين عاما وأنا أملأ حياتهما.. وأمى ليست سعيدة ولا أبي.. ولا أنا.. واعتدنا على هذا الهوان.. وأمى تريدنى أن أرى ماذا؟

- ترى ما أراه كل يوم ولا أعرف كيف أنام ولا كيف لا أنام فى هذا البيت..وكيف أن أمى تعطينى الفلوس وكأنها صدقة أو حسنة.. ولا أطلب فلوسا من والدى ولكنه يعطينى كأننى ابنه تماما.

- وأنت كيف عرفت هذه المأساة؟ لم أعرفها منهما. وإنما قالت لى إحدى قريباتى وهى تسكن معنا فى هذه العمارة التى كتبها أبى لأمى لأنه كان يحبها.. وحاولت أن ترد إليه العمارة ولكنه رفض. ورفض أن يتزوج غيرها.

- وبعد أن عرفت كل شئ فما الذى تريدنى أن أراه وأن أسمعه.

أرجوك أن توصلنى إلى البيت وتطلع معى لتحية أمى وأبى. إنهما يحبانك كثيرا.. أوكي.

ولم أكن أعرف أن بيته فى حديقة جميلة.. وأن البيت نفسه جميل.. والشقة التى يسكنها واسعة وأنيقة ومريحة بألوانها

المتناسقة. وجاءت أمه وقالت:

- أهلا وسهلا يا ابنى إنه يتكلم عنك كثيرا ويراك مثله الأعلى أهلا ياحبيبى اتفضل نورتنا تشرب إيه.. تشرب قهوة وأنا أشوف لك الفنجان.

قلت: إذن قهوة..

وجاءت القهوة ومعها أبوه: أهلا وسهلا بقى لك مدة طويلة لم نرك ما الذى شغلك عننا.. حب جديد.. مشروع زواج.. مشروع هجرة.. هل تريد أن تهاجر من مصر؟

قلت: هجرة لا.. لايوجد سبب أنا سوف أجد عملا فى إحدى الشركات الكبرى وكذلك وأشرت إلى ابنهما..

فقال: صاحبك ده سيبك منه.. أنا لا أعرف ماذا يريد. يمكن يريد التخلص منى فيقتلنى وأمه تقول: مستحيل أن يكون هذا تفكيره فلا أحد اساء إليه ليتخلص منه بهذه الصورة الفظيعة. ولكن زوجتى بتذكر الموت كثيرا فى حوادث كثيرة للسيارة.

ولكنه الله نجاه وكذلك حوادث القطار المشهورة. نجاه الله لنا والحمد لله.. وعندما كاد بيتنا يحترق. وكان هو مستغرقا فى النوم وفوجئت بالصدفة من زيارة وأحسست أننى لابد أن أعود إلى البيت. ولا أعرف سر هذا القلق. وكان قلقى فى محله.. فقد احترق المطبخ وتوشك النيران أن تتسلل إلى بقية البيت ونجاه الله لنا من الموت. ولأن والده مات بالسكتة فهو يخشى دائما أن تكون نهايته هكذا.

الأب: ليست هذه هى الحقيقة ولكن زوجتى عندها خيال واسع وبديع. ونصحتها أكثر من مرة أن تجرب الكتابة وأنا

سوف أنشر لها ماتكتبه. فعندها القدرة أن تقص عليك الحكاية بعشرين شكل. فلو جاء أحد الأصدقاء أو إحدى الصديقات وأرادت أن تفسر لها لماذا أفكر فى الموت لتخيلت قصة أخرى محبوكة مسبوكة وليست صحيحة ولكنها مقنعة!

وظهر صديقي وقد حمل فى يده حقيبة كبيرة يبدو أنه سوف يسافر بعيدا وقتا طويلا. وفعلا لم يسأله أبواه إلى أين ومتى يعود.. بالضبط كما قال صديقى إنهما لايشعران به. وأشار صديقى إلى الباب. وقمت. ولكنها قالت لي: الفنجان.

قلت: آسف يا طانط الباشا بتاعكم مستعجل. إلى أين لا أعرف وكأنها لم تسمعنى ومدت يدها إلى الفنجان المقلوب وقالت لى :

- أنت لازم تنزل بسرعة لأن أمك فى خطر. وليس أحد معها فى البيت.. وماعدا ذلك فكل شئ كويس..

واندفعت إلى الباب إلى السيارة وأنا منزعج. ثم كيف صدقتها.. ثم كيف عرفت. ولكنها مشهورة بقراءة الفنجان .. ولم أر أى شئ فى الطريق ولكن السيارات حولى تطلق أجهزة التنبيه وبعضهما يشير وأنا لا أفهم. وكأننى لا أسمع أيضا ووصلت إلى البيت وقفزت إلى السلم والبواب يقول لى إن الأسانسير موجود. ولكن قفزت إلى الشقة ووجدت الباب مفتوحا وناديت على الخادمة فلم أجدها. واتجهت إلى غرفة نوم أمى فوجدتها نائمة مستغرقة بسبب المنومات القوية التى تتعاطاها. وجلست فى الصالة وأعددت لنفسى القهوة.. وفتحت التليفزيون انتظارا للخادمة.. ولكنها لم تحضر. ونظرت إلى

كل الغرف أن كان شئ قد حدث.. سرقت شيئا من هنا أو من هناك.. فكل شيء فى مكانه كما تعودت أن أراه..

واتصلت بصديقى وقلت لأمه:

- كلامك طلع مضبوط ياطانط وحكيت لها وسألتها عن صديقى فقالت: ظننته يجئ إليك ليطمئن عليك.

ولكنه لم يفعل وخرج دون أن يبدى شيئا. إنه لايختلف كثيرا عن أبويه. فهو لا يسأل عن أحد. وإنما اللقاء يكون بالصدفة. ولا يفتقدها.. تماما كما يفعل أبواه. ومعذور؟ نعم.. إنه إنسان بلا جذور. ويمكن خلعه وقلعه وغرسه فى أي تربة أخري.. لأنك تزرع شجرة ذابلة.

وسمعت صوت سرير والدتى ثم صوت الشبشب ثم:

- صباح الخير ياحبيبي. خير إن شاء الله أنت لم تذهب إلى الجامعة.

سيارتك بها شئ وتستأذن خد سيارتك ياحبيبى أنا مكسله النهاردة ومش نازلة.. خير ياحبيبي.

- أبدا لا شئ. أنا شربت القهوة وأريدك أن تقرئى لى الفنجان..

- هاها.. يا ابنى أنت حتضحك عليّ.. أنا أمك وأعرفك.. إيه مالك قلقان ليه.. فيه حاجة. قول لى بسرعة قبل ما آخد دش..

- والله ياماما مافيه حاجة غير عادية. وإنما فجأة أحسست أن شيئا ما سوف يحدث اليوم. فأسرعت وعدت إلى البيت فوجدت الباب مفتوحا أنت نائمة فى فراشك مستغرقة تماما.

ـ أيوه بسبب الهباب الذى أبتلعه كل يوم.. غريبة البنت سنية الشغالة ماجتش..

ـ مش عارف. أمال مين اللى فتح لها الباب..

ـ يمكن أنا وذهبت ونمت..

ـ ولكنها لم تعد إلى البيت..

ـ النهاردة إيه؟

ـ النهارده الأحد.

ـ هذه إجازتها. فهى قد جاءت وعادت بسرعة لأن جوزها يعمل فى شرم الشيخ وعنده إجازة يوم واحد.. ولكن ربك سترها..ربنا يخليك ويطول عمرك.. لكن أنا برضه مش مصدقة حكاية إحساسك بالقلق الذى دفعك إلى البيت كالصاروخ قل ياواد الحقيقة. قول بس..

ـ الحقيقة أن والدة سمير صديقي..

ـ آه عرفت شافت لك الفنجان..

ـ صح ياماما..

ـ أنا عارفاك.. وأنت عاوزنى أشوف لك الفنجان مرة أخري.. لتتأكد .. أنت زى أبوك يريد أن يتأكد.. صورة طبق الأصل ابن حلال مش زى صاحبك ابن الحرام..

ـ ماما ! أرجوك ألا تذكرى هذه الحكاية مرة أخري. أرجوك أن كل واحد متأكد من أمه وليس من أبيه..

ـ طيب ياخويا قرفتنا بالفلسفة بتاعتك دي.

- أرجوك ياماما هذه المأساة تعذبني.. وأرى آثارها الأليمة على صديقي.. أرجوك..أبوس إيدك..

- خلاص يا ابنى .. انتظرنى حتى أخرج..

ودخلت الحمام وخرجت أنا إلى الشارع إلى السيارة إلى الجامعة.. وأحسست أننى انتقلت من الترعة التى كنت ألعب فيها إلى المحيط الذى يبتلعنا كل يوم ويلفظنا ونعود إليه.

***

صندوقي الأسود ٩

إذا كان عبدالرحمن بدوى أستاذا للفلسفة وقد وصفه طه حسين بعد ذلك بأنه أول فيلسوف مصرى فالمسافة بيننا كبيرة، إنه لايحدث أحدا ولايفكر أى طالب إذا رآه أن يستوقفه. لتحيته ومداعبته. لا شئ من ذلك مع عبد الرحمن بدوي.. ثم إنه خجول ومشغولٍ جدا بكتبه ودراساته الرائعة. ولكن يبدو حراً أن يكون أستاذاً وأن يحتفى بتلامذته وأن يلتقى بهم ويجلس إليهم ويشجعهم، كذلك كان يفعل أفلاطون صاحب الحوارات البديعة. وكان أرسطو يدرس لتلامذته وهم سائرون على أرجلهم. ولذلك اطلقوا عليهم اسم "المشاءون".

وذهبت إلى الاتحاد السوفيتى ورأيته فى آخر أيام بولمانين وأول أيام جورباتشوف الذى فكك الاتحاد السوفيتى فاتهمه

الشعب بالرجعية.. لأنه وقف ضد التيار الذى أطلقه هو..
وحاول أن يبعد ما يمكن إبعاده من كل شئ بعد أن انفتحت عليهم الأرض والسماء فإذا هم سقطوا فى وديان وأخوار لتؤكد لهم الوحدة مرة أخرى وعندهم وقت ليفعلوا.

جورباتشوف الذى حرك عقارب الساعة ويريد أن يوقفها أو يعيدها إلى الوراء فقد كان الناس أكثر حرية. وأكثر فرحة بالحرية ومئات الألوف من الغانيات اللاتى ملأن كل العواصم العربية والأوروبية أيضا. وكن جميلات رشيقات . ويتكاثر السماسرة فى كل مكان ولهم تجارة واحدة هى تجارة الرقيق الأبيض.

وما قبل جورباتشوف كان الروس لايذكرون لنا مدى نفوذهم أن تذهب إلى أحد الفنادق وترى الشباب يرقص على موسيقى روك اند رول الأمريكية.. أربعة أشخاص زوجان. يرقصان معا. دليلا على حرية الرقص والممارسات الليلية كأمريكا. ولم يعد اليهود كلهم.

لابد أن يتعلم صنعة. ولن يتعلم صنعة الا إذا استطاع فى نفس الوقت أن يعرف القليل من اللغة العبرية وإلا فلا امتحان ولا نجاح!

وكان من المشاهد المألوفة فى تفوق روسيا الكبير أن تجد المشرفات على غرف النوم سيدات جميلات وأمام كل واحدة زجاجة ويسكي. أى أنهم يشربون الويسكى بدلا من الفودكا التى هى شراب القلة الجائعين من الجليد. أما الويسكى فهو شراب محترم. يجئ إلى روسيا مهربا. ثم إن الملاحظات يصطدن الرجال بهذه الزجاجة. أما أن الفتاة التى تعود إليها

ومعه زجاجة ويسكى وسجائر كنت خصوصا هذا النوع الرفيع المستوى من الكحوليات. ثم إنها تدعو الشباب إلى شابات حاضرات وراء الأبواب وهى لن تدخل غرفتك إلا إذا دعوتها.. هكذا بنات الأكارم وليس بنات العمال والفلاحين.

ثم تجربة السجن عندالشيوعيين هى واحدة من أروع التجارب أن يجد نفسه وحده، وأن يتسع وقته لأن يراجع نفسه ولأن يفكر.. ويزداد صلابة وقوة. وليس أقول لامانع عندى أن أدخل بشرط أن أجد البطاطين هناك صيفا وشتاء. وكنت قول ساعة فى السجن تساوى كم ساعة عندكم؟

الساعة ستون دقيقة. ولكن فى السجون ستون ألفا أو أكثر وهذاالموقف جاء يشرح حالة ويقول ممتعا بما يقول. وفى نفس الوقت النظر إلي.

ولكن لا أحس من الخط المستقيم فى العمر وما أسوأ الخط المستقيم فى السياسة. ولذلك البنات فى عهد جورباتشوف أن يشترين آلات موسيقية يغنين عليها.

وفى إسرائيل يقولون إنك إذا وقفت فى المطار ووجدت آلات الكمان والكونترباس ووراء كل واحدة واحد. فتأكد أنهم جميعا من الروس. فالموسيقى حياة الروح..

وفى هذه المساحة الخضراء بين كلية الآداب والمكتبة العامة نجلس نحن أعضاء "جماعة الحراموفون" ولويس عوض يجلس معك على الحشيش أو على الأرض. وإن كان هو يفضل الأرض لأنها الأقوى والأسلم. وكان يتمنى أن يتزوج المدرسة التى كانت أعز أصدقائه وسوف تزداد بعد

ذلك والسبب أن الشيوعية كانت مصدر الخوف· واليوم لم تعد تخيف أحدا!

ولكن من مزايا الشيوعيون أن لهم قضية· وهم غاضبون لسبب· وأن هذا الغضب لابد أن يبقى للقضاء على هذا السبب·· ولذلك حاربوا وتظاهروا ودخلوا السجون والهدف واحد· وهو أن يحققوا العدل بالقوة· أو العدل بالظلم· ولكن لهم قضية، وكل قضية وراءها مقابل هى قضية نبيلة·

وكذلك صديقى نبيل·· إنه من الإخوان المسلمين· وأصبح· ذقنه وصلاته وكلامه· فهو صاحب قضية· عنده غضب نبيل·

ليس وحده وإنما آخرون مثله·· عززوا أنفسهم دفاعا عن هذا الحق ودفاعا عن السنة النبوية الشريفة حتى الحياة والعدل والكفاح· ولن يحقق ذلك وحده وإنما هو ومعه آخرون· فهو كل مرة يقول أن الطرق إليها إنما يمر بالسجون· لأن فى السجن تحتشد قوات وتنظم··

فلا خلاف بين الشيوعى والزوج المسلم· إنهم أعداء· ولكن ليسوا هم الأعداء الوحيدين وإنما هناك آخرون·

وفى هذه المنافسة التى يتكرر كثيرا تساءلنا. وأنت؟ فقال:

- آخدوا أرض أبي· ولابد أن استرجعها·

- وأنت؟

- قتلوا أبى وهذا ثأر وشرف لعائلتي· ولابد من قتل القاتل أو ابنه، لابد ولا نعرف من ذلك· إننا متربصون وفى انتظار

أوان شحنه. وهذا مصدر همه الوحيد. ولكن هم كبير يأكل كل الهموم الصغيرة فلو ذهب إلى ابنه وقد رسب فى الليسانس وسأله أبوه فقال:

- والله ما عرفت أذاكر. لأنى شفت الرجل اللى قتل أبويا داخل الجامعة. فإذا كنت رسبت فى الامتحان وشماتة العدو. وإذا تركت الصلاة وأطلقت الرصاص على قاتل أبي، فلن يلومنى أحد لأن موته هو الثأر.. أنه أكبر من الصوم والصلاة. وهذا هو الهم والنكد الوحيد فى حياتى ، تعرف مد يده وسرق مسدس والدى وأطلقه عليه ولم يهرب وإنما وقف إلى جواره يبكى على الذى أصابه من فزع ورعب.. وأن القاتل قد استخدم مسدس أبى ، سرقه وأطلقه عليه.. وسلم نفسه. فلم يعد خائفا. أراد أن يسرق شرفه. فهو اليوم الشريف فلان الفلاني.. نموذج للرجل البطل صاحب القضية. وقضية واضحة جدا ابتداء من أرض فرنسا حتى مداخل موسكو الذى أحاط بالمدينة من كل نواحيها. وكان الخلق نوعا من الرفض.

وإذا فشل فى اطلاق الرصاص عليه. أخطأ. فكأنه قد أراد ذلك ولكنه ضل الطريق إليه. وكأنه لايريد أن يعيد الآن وإنما يقدمه قبل أن يظهر على الشاشة.. ويكون ظهوره فضيحة أقوى من الجريمة.

وفجأة وجدنا بعضنا بعضاً. ما هو هذا هو الموضوع أو القصة التى تشغلك والتى ترى أن من واجبك أن تحلها.. أو بعبارة أخرى فى يوم من الأيام كانت عندك مشكلة والمشكلة هذه قادرة على أن تجعل أسعد الناس أنفسهم.

وقد تكون قصة تافهة ولكن كانت ظروفها فى غاية القسوة.
اختفت القصة وبقيت القسوة!

ـ وأنت؟

ـ أنا مش عارف.. مفيش عندى قضية.. لم يحدث فى حياتى كلها حادث يسمى تصعيدا واحدا فطلب الانتقام والرد فورا..

ويقول لك: إنه طلب أن يلعب بالكرة ولم يقصد الحركة التي قام بها فقد أذيت القدمين وهاجت الجماهير وصاحت دفاعا عن الرجل الضحية والغلبان.. والحقيقة لم يشأ أحد أن يذكرها وكنا سبعة. كلهم قالوا وأنا لم اقل. وتنبه أحد إلى ذلك فقال لي: وأنت إيه قضيتك؟.

ـ قضيتى إن كان لى قضية لم يقع لى فى حياتى بين أحداث عاشت طويلا. فعلا لم أنم ليلة دعى فيها والدى إلى البوليس ليسألوه عن واقعة. وترتب على ذلك أن يبقى فى التخشيبة حتى الصباح ولم يكن هذا ما يقال لنا ونحن نهم بالبكاء. وإنما نسمع من يلعن الدولة أو الحكومة أو المصريين.. ومادام اللعن قد أصاب كثيرين هكذا فقد ضعف واستنفد قوته. ولكن يعم الغضب عنيفا شرسا متربعا إذا كانت الميول واحدة.. ثم عرفنى أن المسئول شخص واحد..

أننى السبب فهو أننى أريد أن أرى الرجل الذى حاول أن يدخل والدى السجن وأن أصفعه أبصق فى وجهه ومن الغريب أنهما وافقا. وكان لابد أن أعبر الترعة على ماسورة رفيعة بين الماء. خوفا من أن أقع فى الماء وقف اثنان من التلاميذ واحد من هنا وواحد من هناك أتساند عليهما.. ووصلت إلى بر الأمان وازداد شعورى بالغضب. وهذا الغضب الوليد

يجعل أى انتقام أمرا سهلا. فأنا مثل بندقية حشوها بالرصاص وسحبوا الزناد ولم يبق إلا إطلاقها عليه..

وسألنا قالوا: مريض.

قلت: لابد أن أراه. ولابد أن أذكره بما يفكره بي. ورأيته وقلت له: أنت سلومه قال: ايوه يابيه الله يكرمك..

- أنت تعرف الدكتور عبدالحى البرعي.. وتعرف محمد أفندى ابن عمه..

- أيوه طبيعي.. من زمان قوي..

- وتعرف أنك أنت الذى كتبت شكوى كيدية؟ فى أن يحجزوا محمد أفندى وهو الرجل الطيب الذى اختارك أنت وشجعك حتى شغلت مكانه..

- أولاد الحرام كتير. هم اللى أفسدوا ما بيننا.. ولكن لم أكتب شكوى كيدية هم أملوها علي.

- تعرف أنا مين؟

- أهلا وسهلا

- أنا ابن محمد أفندي.. ولم أنس جريمتك هذه البشعة ولولا أنك مريض لألقيت بك فى الترعة ولكن أكتفى بأن أبصق فى وجهك.

- سلام عليكم!

وصارت هذه الحادثة قصة المدينة.. قصة الذى راح ينتقم لأنه بعد أربعين سنة. لا ينسى ماحدث ولا استطاع أن يسكت عليه..

- استرحت

- نعم استرحت الآن تماما

- هل هذا كل ما كنت تشكو منه وتريد أن تريح نفسك بالانتقام منه..

- يمكن..

- كيف يمكن أن تكون لك حياة طويلة ومصادمات وطلوع ونزول وفصل من العمل ثم لاتجد أنها مصيبة.. قضية.. كارثة ولو أتيحت لك الفرصة لاتتعجب. ربما أنت أسعد منى كثيرا فعدوك واحد محدد.. أما أنا فأعدائى لا أستطيع أن أجدهم فى واحد.

وجاء دور سليمان.

- وأنت؟

- أنا ماذا؟

- ألا يوجد فى حياتك مصيبة. وهذه المصيبة هى التى كرست حياتك .. الماضى والحاضر والمستقبل. لقد أمروك.. وحبسوا أباك واطلقوا عليه الرصاص.. وخطفوا أختك.. وأرغموها على الطلاق من رجل غنى تحبه ويحبها. وأرغموها أن تتزوج واحدا من أعدائك إنها العمر.. إنها عروس النيل جملوها وزينوها إلى وحش كاسر وبذلك عاشت الأسرة فى راحة البال. هل كل هذا صحيح!

- صحيح

- ولكن كيف أن هذه المصائب لم تهز قلبك.. لم توجع قلبك.

لم تقسم على أن تنتقم. وإنه لأشرف لك إلا باسترداد الشرف والكرامة ولكن أن تكون لك قضية.. بلا غضب نبيل.. بلا ثورة بلا رفض.. وأن كل شئ تمام تمام..

- نعم كل شئ تمام لأسباب.. أن هذه المصائب كثيرة ولكن عندى جهاز يجعلنى نعطيها أحجامها ونرى أنها ليست استثنائية فلست وحدى جمعتها وإنما الدولة كلها. فالدولة هى صاحبة الحق وما بعد أعطيت هذا الحق وانتهى الموضوع..

- ولم نفكر فى اغتيال عبدالناصر بعدالتأميم أو على الأقل تنتقم إلى من يريد ذلك أو تكتب تدعو إلى مثل ذلك.

- لا..

- برود.. بلادة.

- عقل.. فطن

- وهل يمكن أن يكون لك عقل عندما سمعت أنهم خطفوا أختك

- ولكنهم أعادوها دون أذى لها

- مجرد الاستهانة بك وبأهلك جعلهم يخطفونها. نعم رأيكم ولا حاجة.. لاقيمة لكم ولا وزن. فشلوا فى إغضابك فشلوا وتقدم الفدية.. فأنتم انتصرتم بالقلب والبلادة والاستخفاف.. ولم يثر أحد منكم عندما علم أن هناك مؤامرة لاغتيال ثلاثة من رجالك فى ليلة واحدة. لأنهم هم الذين أرشدوا البوليس على مخازن السلاح والمخدرات أصحاب العمارة التى تعيشون فيها..

- ولا حاجة.. طبيعى جدا أن يثور أى واحد وجد نفسه فى

قبضة البوليس وراح يتهم كل الناس ومن بينهم أبي. مع أن أبى لم يكن السبب وإنما سكرتيرة أبى التى قتلوها..

- ولا حاجة!

- ولاحاجة

- ياخبر أسود على برود أهلك. يعنى لم تفلحوا فى أن تجعلوها قضية حياة أو موت..

- وعندما مرضت أنا بالسرطان وجاء الأطباء من أمريكا وفرنسا وبريطانيا. وكنت كالوردة اليانعة. ثم انطفأت كل الأنوار فى عينك.. فى شفتيك فى أسنانك. وبدأ جلدك العفن ينتفض وتقدمت بك السن عشرين عاما. ولاتزال تعانى وتكافح. أليست هذه قضية؟

- قضية .. ولكن صديق؟ من ويلات السرطان من الأطباء الذين يحاولون كسب هذه المعركة غير المتكافئة والشرسة. إنها قضية الأطباء والعلماء ونحن على الهامش لا رأى لنا ولكن ننتظر الفرج من الله.. وانتظار الفرج ليس قضية.

- إذن أنت عندك حاسة تحويل الكوارث إلى حوادث وتحويل الحوادث إلى نكت.. وهذه مقدرة فذة ولكنها فادحة الثمن.

- يعنى إيه؟

- يعنى أنك دفعت فيها ثمنا غاليا بالسر لك وبس.

- يعنى إيه؟

- يعنى حرمتك من أن تتوجع وتتألم وتكتب. وتصفعهم وتقضى الأمل أو تفقده وهذا هو الأدب.. وهذا هو أهم عناصر

الغضب الذى يفضى إلى التمرد والثورة.

- ولكن هذا شعوري

- أو انعدام شعوري

- لا.. لم ينعدم شعورى ولكن كنت أرى عمليات العكننة كلها تنتظر إلى هذه الواقعة أو الكارثة على أنها ليست كذلك. فأنا مريض. ومرضى ليس فى يدي. ولست شامبليون الذى استطاع أن يفك طلاسم حجر رشيد الأمر أصعب. فالسرطان يكتب بحروف لانعرفها ويصعب قراءتها. وأنا فى هذه الحالة لا أستطيع أن يكون عندى أمل. لأن الأطباء ليس عندهم أمل. وإنما هم ينتظرون بلا أمل ولا يأس..

والقضية إما أن يكون أملا أو خيبة أمل بالنسبة لى شيئا من ذلك. كل الذى أستطيعه هو أن أنظر.. أنظر إلى الملاكم فوق حلبة لملاكمة إنه يقاتل واحداً شرساً مثله واحد شرس مثله. وأما هذه الحلبة التى يتصارع عليها وحشان كاسران: سوف يجئ وقت تتحطم لكثرة الضغط عليها.. وتنتهى بأن ينجح أحد اللاعبين أما المريض فهو الخسران ولا علاج ولا حل فكيف أتهم أحدا.. إنه القدر. وأنا لاطاقة لى على القدر ولا قدرة لى على القدر الذى هو الله!

- آمنت بالله. وآمنت بأن خلق لنا واحدا مثلك يعتبر مخالفته جريمة لكل قوانين الطبيعة وعلم النفس والمنطق.. أنت استثناء صارخ لاقياس عليه. أنت خارج التاريخ أنت من كوكب آخر. وأنا سعيد بمعرفتك واسم الكريم إيه؟

- اسمى المؤمن بقضاء الله وقدره

- ونعم الناس!

ومن بعيد أمي تقول: يا أولادى يا حياتى عودوا إلى بيوتكم·· ناموا قد انتصف الليل·· واللى عنده مصيبة ربنا يخفف عنه واللى ما عندوش ربنا يزيده·· ولكن لابد من أن تقضوا على مصائبكم ومخاوفكم أولا بأولا·· لاتدخروا الغضب لا تحزنوا الكراهية·· املأوا قلوبكم بالحب والأمل· وربنا يحقق بكم أمل أمهاتكم وآبائكم· تصبحوا على خير يا أولادي··

***

صندوقي الأسود 10

كان كل شيء يدل على أننا سوف نغادر هذا المكان، هذا الشارع والمنصورة وإلى القاهرة. أمى لم تر القاهرة ولا أنا، وأقرأ عنها كما أقرأ عن بعض العواصم الأخرى قد تأخرنا كثيرا فى معرفة كل شيء ملموس فأنا غطسان فى نفسي.. ولم أعرف متى فتحت عينى على الدنيا.

فى كل مكان حقائب وصناديق ولفائف وهمس فقد أستدعت أمى بعض الأقارب من البنين والبنات.. جاءوا.. وأمى توجههم هذا هنا وذاك هناك صحيح أنه هنا أشياء فى البيت كثيرة ولكن الاهتمام بها وبنا كان أكثر وأهم ما فى هذه الأشياء ساعة الحائط.. تلقى حفاوة من أبى.. يبدو أن لها ذكريات عنده وفى كل مرة ننتقل من بلد إلى بلد تخلع من الحائط وتسند

على ركبتي.. ويتوقف زمان ودقات واستغراق الساعة هى تابوت صغير للزمن ويبدو أن عندنا حرية فى المكان أكثر من حريتنا فى الزمن فالزمن قد وقف بنا والمكان قد ضاق بنا وضقنا به.. مع أن زماننا كان محدد مكاننا كان خانقا.

ولكن لاحظت أن أمى لا تنظر ناحيتى وأن شيئا غريبا قد حدث أو سوف يحدث ولم أسأل أنا أمي.. ولا أستطيع أن أهمس فى أذنها.. فكلها رافض لأى شيء من أى أحد مهما كشر، ولا ترد.

شيء غريب باب الشقة مفتوح.. والعادة أن أسارع بإقفاله حتى لا يجدد لها الهواء فوراء الباب- هذا رأى أبي- كل مصائب الدنيا.. ولا يجيء من الباب المفتوح إلا القطط والكلاب التى امتلأت بها الخرابة ومعها الصراصير.. ولكن لأننا راحلون فلتدخل كل الحيوانات إليه وأصبح امتدادا للخرابة.

وفجأة ظهرت إحدى جاراتنا ولا كلمة.. وجارة أخرى وثانية وثالثة ولاكلمة ولا حتى صباح الخير.. ولا أحد ينظر ناحيتى ولا أحد يكلم أمى إنها تصافح وتشكر وتمن.. على أى شيء لا أعرف.. ولكن يبدو أن هناك اتفاقا على شيء ما لابد أن شيئا قد حدث عندما كنت فى المدرسة.

وجاءت سيدة رابعة.. وجلسن معا فى صمت.. أعوذ بالله عزاء؟ أحد مات.. والميت من عندنا أو عندنا.. سألت أمى قالت" الراجل بيضرب مراته في الصبح!".

- الراجل مين

- ابراهيم النصراوي

وهو مدرس اللغة الإنجليزية فى مدرسة المنصورة الثانوية..
وهو رجل خشن غليظ كئيب الوجه والعين، فى حاله. هو فى حالة استدراك لكى يقاتل ويشتم ويلعن وفى المدرسة صوته مرتفع ونبرته طويلة.. ويضرب ويشتم.. ولا حد يحبه.

وهو يضرب زوجته كثيرا.. ولكن يبدو أنه هذه المرة قد زودها وزوجته من فلسطين مهاجرة وقالوا يهودية.. وسألت أمي:

- يهودية يعنى إيه ياماما

- يا ابنى مش مسلمة ولا موحدة بالله.

- ازاى يعني

- ابنى اسأل بابا عندما يجيء عند منتصف الليل.

- متي؟

- الليلة.

وقد رأيت الأستاذ ابراهيم ينزل بعصاه الطويلة على ظهر هذه السيدة البيضاء.، وعلى وجهها والسيدة كارمل عندها ابن لطيف أبيض الوجه أزرق العينين.. وهو يحاول طول الوقت أن يتلقى الضربات عن أمه.. والسيدة تصرخ بكل ما فيها من قوة.. رأيت هذا مرات عديدة ويدهشنا أنها تفضل هذا الهوان ولابد أن هذا الهوان أقل أو أرحم من هوان آخر.

لماذا تقبل؟ كيف تسكت؟.. أليس لها أهل أقارب ..أصحاب.. أليس عند الناس نظر، يتقدم أحد ويقول للرجل المتوحش.. كفاية ليه أو لماذا الضرب؟. فلم يقل لى أحد.

وكانت أمى قد استدعت جاراتها واحدة وراء الأخرى.. وجئن وقررن أن يذهبن إلى حيث النصراوى يضرب زوجته.. وهو صاحب البيت.. ولابد أن أراه كل يوم فى المدرسة وكل منهم على باب البيت وعلى السلم نازلا وطالعا فى كل الأحوال كبش غليظ وحش كاسر.. ولم أر فى حياتى رجلا يضرب امرأته.. أبدا ولا أعرف إن حدث لماذا؟.. ولم يحدث أن رأيت ولا رأيت ما حدث اليوم.

وفى صمت تقدمت أمى صاحباتها وجاراتها وذهبن إلى حيث الأستاذ النصراوى ونادتنى أمى أن أكون معها.. وتسللت بين السيدات وبقيت إلى جوارها.. وضغطت على الجرس.. لا أحد يرد.. وعاودت ضغطى على الجرس ولكن أحدا لم يفتح لنا الباب.

ودفعت أمى الباب فوجدته مفتوحا.. ووجدت السيدة اليهودية كارمن ملقاة على الأرض وملابسها ممزقة وآثار الضرب زرقاء على بشرتها الوردية.. أما ابنها "سامي" فقد جلس على أحد المقاعد وأحنى رأسه ويخبط وجهه.. ولم يلتفت إلينا أحد عندما دخلنا وتقدمت السيدات إلى كارمن يحاولن أن يفعلن شيئا.. وكانت كارمن قد أغشى عليها..

وتنبهت ورجت كل السيدات أن يعدن إلى بيوتهن خوفا من الاعتداء عليهن. فزوجها فى حالة غضب وثورة فظيعة وهو يكسر كل ما يصادفه، وحاولت أن تثنيهن عن البقاء وراحت تشكرهن وترجوهن أن يعدن ولكن أمى أصرت على البقاء.. وكان إصرارها شديدا.. وجلست وأشارت إلى صديقاتها أن يجلسن.

أما سامى فقد تنبه وسحب المقعد من تحته وأعطاه لأمي.. وسامى هذا فى غاية الأدب والرقة والفهم والاطلاع.. والجلوس إليه سرا من أمتع الأوقات فى حياتى فقد رأى الدنيا ورأى بلادا كثيرة ويمدنى بما لديه من معلومات .

وانفتحت حقائب السيدات ووضعن العطر فى أنف كارمن وهز يدها ودلك ذراعها وهز ساقها وصدرها وظهرها. ويساعدنها على الوقوف.. وكانت السيدة أم ربيع التى تسكن قبالنا هى اشجع من الجميع..

قالت كان الراجل ابن الكلب الشحات يضرب كثير يا ابنتي. وهو يطول حافر رجليك.. حلاوة وأدب وسيرة حلوة وكلامك كله حلو.. إيه الحظ الأسود اللى وقعك فى ابن الدايخة.. أمه كانت دايه وأبوه رجل يبيع الهدوم القديمة يعنى أسرة منحطة.. إيه يا ابنتي..

ولكن كارمن قد ظهر عليها الفزع وحاولت أن تمنعها عن الكلام خوفا عليها.. فقالت:

- أخاف منه مين ده أنا عارفه أصله وفصله.. أنا أقول لك ليه. أنت عندك فلوس وهو بخيل يخاف على المليم.. ولابد أنه وجدك صرفت فى يوم واحد خمسة قروش.. فى أشياء لا لزوم لها.. والله كده والكعبة اللى أنا حطيت إيدى عليها.. مش أكثر من كده.. ويا ابنتى ايه اللى رماك على المرده..

أما أمى فقد وقعت فى صورة غريبة كأنها تمثال ممدود.. وتغير ملامح وجهها ونادت :

- يا أستاذ إبراهيم أفندي.. يا ابراهيم أفندي.. عاوزينك فى كلمة ياسى إبراهيم أفندي.. من فضلك!.

وكان قد ارتدى البيجامة الحمراء الوحيدة والتى تغسلها كارمن كل يوم وتضعها فى البلكونة فى نفس المكان.. وظهر وتلفت إلى السيدات الحاضرات وقال :

- فيه إيه يا ستات.. راجل يؤدب مراته حرام مراته فيها إيه دى يا ستات.

أمي: وهوه علشان تأدبها تكسرها ست حتت واحد زى حضرتك مقام قد الدنيا يعمل كده فى واحدة ست كاملة وغريبة ووحدانية غلبانة أما إحنا عارفين كل حاجة.. كل الشارع عارف أن الست غلبانه إنها مهاجرة. ولجأت اليك.، وبفلوسها أنت لم تنفق عليها مليما واحدا بل دى فلوسها.

وترتمى عليها كارمن تمنعها من المضى فى الكلام.. ثم تلتفت أمى وأنا فى ذهول مما تقول:

- ودى برضه رجولة وشهامة.. وده اللى بتعلموه للعيال فى المدرسة.. يعنى حد يشوفك كده بتضرب ابنه يتعلم تضربنى وتضرب ابوه ياسى ابراهيم عاشر وفارق بالمعروف تعبان أتركها.. لكن اللى بتعمله فى كل يوم كل يوم ولا تتعب ولا تزهق ولا تمل.

- اسمعى يا ست أنت.. ده مش شغلك.. إيه اللى حشرك.

- احنا ما اتحشرناش أنت اللى اتحشرت فى حياتنا حديث الست وصوتك وجنونك كل يوم وصراخها الذى يسمعه كل الناس.

- اسكتى هيه بتحب الضرب.. قولى لها إنك بتحبى الضرب قولى لها يا بنت الكلب.. يا دايخه يا صايعه يا جعانه.

الست أم عبداللطيف: ياسى الأستاذ إبراهيم.. إحنا كلنا

عارفين بعض أنت وأبوك وأمك وأختك عطيات وأخوك عبدالسميع كلهم شحاتين كلكم أنت شخصيا جيت لى البيت.. وطلبت منى جوارب وبنطلون علشان تروح به المدرسة.. والست الغلبانه كانت تلبس وتفرج عليها العالم.. أنت الكرش واللحم ده كله مفيش ولا تقول خير.

- اسمعى يا وليه يا ممزقة.

- وممزقة يا ابن الكلب يا داية يا ابن الداية والدايخ أبوك.. احنا بإذن الله حنكسر ضلوعك الليلة السوده.. الرجالة جايين.. وحتشوف حتعمل راجل ازاي..

وفجأة ظهر سامى ابن الست كارمن وهجم على الأستاذ النصراوى وأوقعه فى الأرض وركب فوقه وطلب من أمه أن تهرب على السلم.. وقد أعدت حقيبة لها ونزلت على السلم ووراءها السيدات.. أما هو فظل على الأرض مذهولا من المفاجأة والدم ينزف من أنفه وربما أغمى عليه.

وحاولت أمى أن تجعل كارمن تنتظر بعض الوقت.. أو كان فى حاجة أو يذهبن معها إلى العطار.. ولكن كانت مفاجأة أخرى لقد كانت هناك سيارة فى انتظار كارمن وسامي.. واختفت السيارة وكارمن وسامي..

وأعيدت مناقشة ما جرى عشرين مرة قبل ذلك.. وانبهرت بأمى لم أكن أتصور أنها تستطيع أن تضرب هكذا.. ولا أن تحشد الناس ضده ولا أن تذهب بنفسها وتكلمه وهى سيدة خجول بتكوينها وصوتها خفيف.. ولكن الذى حدث ويحدث كل يوم قد أنطق الحجر وأطال لسان كل سيدة بقدر ما أطال يدى هذا الوحش الكاسر.

وكنت أكثرهم خوفا.. فهو مدرس لي.. ومن الممكن أن أسقط بسبب ما حدث.. ولكن أمى قالت لي.. لا تخف تعال معي.

تركت البيت للسيدات صديقاتها وجاراتها وسرت وراء أمي.. وأحيانا إلي جوارها وهي لا تقول لى شيء.. انتهى الشارع ودخلت شارع آخر ودخلت فى حارة.. ووقفت عند باب بيت ونظرت إلي فسمعت من يقول لها.. أهلا يا دى النور يادى النور.

إنه بيت أحد اقاربها ويعمل ناظر مدرسة فى السنبلاوين.. وفى لحظات حكت له الحكاية كلها.. وخوفها من يؤدى ذلك إلي رسوبى ولكن قريبها هذا قال لها وهو ينظر لي:

هذه الفضيحة التى سوف تسمع بها المدرسة كلها غدا سوف يكون كالارنب وهو رجل جبان ولو كان رجلا محترما أو كان رجلا ما ارتكب هذه الحماقات لقد كنا فى رأس البر فى العام الماضي.

ورأيته يحاول أن يلقى بزوجته هذه فى الماء.. وقد ظننت أول الأمر يداعبها بغلظة وخشونة ولكن عرفت أنه يريد أن يقتلها فعلا..

وهذا ما فهمته من ابنها الذى يعجز عن إيقاف ذلك الثور الهائج لا تخافى ولا تخف. ونزلت أمى وهى تشكره.. وعادت إلي البيت.. ولم تجد صديقاتها لقد عدن إلي بيوتهن!.

***

صندوقي الأسود 11

حياتى تكاد تكون بلا حوادث بلا وقائع بلا مشاكل.. فهل هى بلا مشاكل.. بلا متاعب.. لا أعرف. ولكن الذى أعرفه أنه مهما حدث فيها.. أى أننى راض تماما عما حدث. لماذا؟ لأنه لا توجد أسباب لعدم الرضا، فأنا راض فى جميع الأحوال.. الحياة في الكُتَّاب. رضيت بها، لا شيء يقال: ذهبت إلى الكُتَّاب.. إلى الكُتَّاب لا أذهب.. لا اختيار فالكتاب ضروري، وليس عندى أى اعتراض على الحياة فى الكُتَّاب. فأنا أقضى فيه معظم الوقت وأعمل ولا اعتراض على أن أطعم الدجاج ثم أبحث عن البيض. كل ذلك أؤديه كل يوم. ولا شكوي. ولا غضب.. ولا سخط. هذا واجب.. فلا مناقشة لما هو واجب.

ولأننى لو شكوت فماذا أقول.. إن سيدنا وزوجته يجعلاننا نعمل فى البيت الصغير، لم أعترض.. ثم إن الكتاب يلوث ملابسنا، والقش الذى نجلس فيه وعليه ينتقل أحيانا حشرات تلسعنا ونحن نقرأ. ونكتم الألم وإلا ضربنا سيدنا بدعوى أننا نكذب وأننا نريد أن نخرج . ولذلك نكتم اللسع. وفى إحدى المرات قلت: آه لأن برغوثا قد لسعنى فقال سيدنا: فيه إيه ياولد.. وقلت: مفيش ياسيدنا.. قال: ارجع للسورة من أولها واستعذ بالله واقرأ.

ولما هربت منى دجاجة ورحت أجرى وراءها باكيا فى كل القرية حتى أدركنى أحد الخفراء ومد يده إلى دجاجة فى الشارع وقال لي: خدها إنها أحسن من دجاجة سيدنا.. ولم أقل لأبى ولم يعرف أحد من زملائى عن هذه الواقعة.

فهل المشاكل صغيرة.. لم تترك اثرا.. أو إننى من سن مبكرة أتفرج على الحياة دون أن أشعر بأي مشكلة.. هل هناك ما يمكن الشكوى منه. ولكننى راض تماما مستسلم تماما.. ولا أشكو أو لأننى لا أعرف إن كانت هناك حياة أخرى أفضل.. أو قرية أجمل أو كتاتيب أكبر من كتابنا.. فلا شكوى ولا أزمة.. فأنا راض أو أنا لا أشعر بهذه الأشياء الصغيرة، فأمى عندها كل المعلومات عنى وكانت هى المصدر الوحيد لمعرفتى بالدنيا. ولم أناقش فى ذلك الوقت إن كانت معلوماتها صحيحة. فانا لا أعرف ولا وجدت سبيلا للمعرفة ولا رغبة فى المعرفة. إلى أن رأيت القاهرة: فهى أعظم من القرية والناس ووسائل الانتقال فكل شيء أكبر وأنظف. المنصورة وجدتها صغيرة وقريتى وجدتها ضئيلة.. وأحسست أن المكان خانق. وفى كل مرة أتركها وأنا فى جامعة القاهرة أشعر بأننى فى علبة أو

صندوق تحت الأرض.. لم أعرف بلدى ومدرستي والكتاب إلا عندما ذهبت إلى القاهرة وأحسست أننى أصغر من كل شيء.. وكنت فى الريف أحس أننى أكبر من كل شيء.. أكبر من معظم الناس لأننى حفظت القرآن.

مرة كتبت جانبا من مذكراتى (البقية فى حياتى لوحات تذكارية على جدار الطفولة).. وقد حصل هذا الكتاب على جائزة وترجم إلى اللغة العبرية ترجمة الفقيه اللغوى دافيد ساجيف.. وكتبت مذكرات بعنوان: أمى ابنها. وقرأتها ووجدتها لا تكفي.. ثم وجدت صفحات كاشفة تعريت فيها لأننى حكيت مالا يصح وضقت بهذه المذكرات وأشعلت فيها النار.. فى 750 صفحة!

ومرة ثالثة كتبت مذكرات بعنوان (الشرنقة) أى التى أعيش فيها طول عمري. كتبت أربعين صفحة وتوقفت.

ثم شرعت فى كتابة قصة حياتى بعنوان (صندوقى الأسود) كما فى كل طائرة صندوق لتسجيل ما يدور بين طاقم الطائرة من حوارات بينهم وبين المطار أو الطائرات المجاورة.. وكيف حدث ما حدث للطائرة، فإذا احترقت أو غرقت فى البحر بحثوا عن الصندوق الأسود ليعرفوا ماذا حدث وماذا جري.. وكل واحد له صندوق يسجل ما كان وماهو كائن وليس ماسوف يكون. سنوات وأنا أبحث عن طفولتي. لماذا لا أعرف لماذا؟

وحاولت كثيرا أن أعرف من أمي.. ولكنها تقول الحمد لله على كده.. وأسألها: كده يعنى إيه؟

وتقول: بتسأل ليه.. وعلشان إيه يا ابنى تعرف إيه

قلت لها: ياماما أنا باكتب قصة حياتي.

- يعنى إيه يا ابني..

- علشان الأولاد في المدرسة بيحكوا كيف كانوا وهم صغار.. هذا يقول إنه تكلم فى سن مبكرة.. وذاك يقول إنه ركب البسكليت ذى الأربع عجلات.. ثم الثلاث عجلات وأخيرا ذى العجلتين وبعد ذلك البسكليت ذى العجلة الواحدة وكان يذهب بها إلى المدرسة وإلى الجامعة أيضا.. حاجات بالشكل ده ياماما.. بس..

قالت: يا ابنى أنت طول عمرك أمير وعاقل.. وراض عن كل شيء.. ولا تطلب شيئا ونحن نحاول معك أن نشترى لك شيئا مكافأة على نجاحك ولكنك لا تطلب أبدا. ولا تطلب شراء قمصان فأنت تريد منى قمصان إخوتك وجزمهم. يمكن الحاجة الوحيدة الغريبة هى قراءة الكتب فى كل بيت نذهب إليه. تتركنى وتروح تقلب فى الكتب حتى لو كانت بلغة اخرى لا تعرفها.. بيقولوا كلها كده.. أنت بتقرأ أكثر من بابا.. كنت تقرأ ليلا ونهارا.. فوق السرير.. تحت السرير.. وأحيانا وجدناك نائما أمام الباب ووجدنا كتابا تحتك.. والكتب تحت المخدة وفوق اللحاف. وأنا تصورت أن آخذ هذه الكتب فى أى مكان حتى فى دورة المياه.. هاها.. وقد وجدنا كتابا صغيرا فى جيب الجلابية وقد غسلوها دون أن يعرفوا أن فى جيبك كتابا. والكتاب ذاب وامحت كل صفحاته. وكان حزننا عظيما. وكنت تضع الكتاب أمامك وتحاول أن تقرأ ولكن لا تعرف

كأنك امام جثة تحاول أن تجعلها تنطق ولكنها ماتت.. ولم أرك يا ابنى تحزن على شيء قدر حزنك على الكتاب وعلى موت كلبك الصغير الذى دفنته ورحت تقرأ له الفاتحة ولما ضحك الناس لسماع هذه الحكاية لم تعد تقرأ الفاتحة وإنما تبكى عليه كأنه أخ أو أخت أو صديق.. ومادام يا ابنى قد سألتني.. فإن حزنك كان عظيما عندما سافرت إلى القاهرة ولم تعد ترى أختك.. وقد ذهبت تودعها وتعانقها وبكيتها واندهش الناس. وقالوا أكثر من أخته الشقيقة.. ولما جاءت اخته الشقيقة لم تكن البديل عن أخته غير الشقيقة.. وقد سألتنى وأنت صغير لماذا لا أتزوج أختي؟ وضحكنا فأنت لا تعرف معنى الزواج ولا معنى أن تتزوج أختك.. ولما قلت لك: إنه حرام لن تفهم. وتدخل والدك ليقنعك بأن زواج الأخت حرام.. وأنت بكيت يومها لأنك وعدتها بالزواج. وهى وافقت ولا تعرف ما الذى تقوله لها الآن..

- أنا كذاب؟

- لا أنت مش كذاب يا ابني.. أنت طول عمرك تقول الحقيقة حتى قبل أن تحفظ القرآن.. ولكن ربنا لا يرضى عن هذا الزواج لأن زواج الأخت حرام والذى يتزوج أخته يدخل النار! يا ابنى أنت لم تصدق كل هذا. وفى الليل رأيتك تتقلب ولم تنم. وعند الفجر لم أجدك. وبسرعة نظرت من النافذة فوجدتك عند أختك التى كانت تنتظرك وجلستما تبكيان. ولما ذهبت لوداعها قبل سفرنا إلى القاهرة كان بكاؤك مسموعا. وخفت عليك. وعرفت الحكاية وعرضت الحكاية من أولها على ابيك لعله يجد كلاما أحسن من كلامى يقنعك يا ابني..

قلت لأمي: هذا كل ما فى طفولتي

قالت: يعنى إيه يا ابني..

قلت: ألا يوجد حكايات أخري؟

قالت: الحكايات كثيرة، فأنت تكره أمى كراهية شديدة وتقول انك سمعتها تشتم أباك. وأنها أقسمت على المصحف أن هذا لم يحدث ولكنك لم تصدقها. ولا أعرف كيف كان انتقامك منها فظيعا. ولا أعرف من أين أتتك هذه الأفكار ففى يوم العيد الكبير كانت جدتك هى التى تطهى الخروف فى أوعية كبيرة. وتركت جدتك لترى إن كان اللحم قد نضج فوجدتك جالسا امام الموقد ساكتا. فادركت أن هناك شيئا قد فعلته.. فرفعت غطاء الحلة لتجد كل شباشب البيت إلى جانب الخروف.. وصرخت جدتك تنادينى وهى فى حالة جنون. وسألتك فقلت لي: إنها تشتم بابا. وأنا قلت لك يا ابنى لم يحصل وأنت مصر على أنها شتمت بابا.. وهى تصرخ ولا تعرف ما الذى تفعله بشربة الشباشب.. هاها.. هاها..

ومرة ثانية بعد سنتين تكرر نفس المشهد وجدتك جدتك جالسا إلى جوار أوعية اللحوم فسألتك فى فزع: ما الذى عملته يا ولدى يا ابن الـ.. ورفعت الغطاء لترى اللحوم فوجدتها غارقة فى الطين وصرخت ولطمت خديها تقول أعمل إيه أنا دلوقت.. الولد مش يقعد هنا.. ولم تكد تفرغ من هذه الجملة حتى اندفعت تجمع ملابسك لتذهب إلى خالتك التى لم يرزقها الله بالولد فاعتبرتك ابنها ولا تمل حضنك لها ولا أنت.. وكنت تحبها أكثر من حبك لي.. يا ابنى أنا مش عارفة ازاى لما حد يزعلك تكوم هدومك وتقرر المبيت فى مكان آخر.. ولا تنس

أبدا من أساء اليك. وكثيرا ما تقول هذا شتمنى وهذا شتم أباك.. وهذا شتم الاسرة كلها.. وحاولت أن أرجعك إلى بيت جدتك.. ثم حاولت هى واعتذرت لك وأكدت لك أنها لا تشتمك وإنما هى عادة أن تقول لأى أحد: يا ابن العفاريت.. يا ابن القرود وهى لا تقصد معانى هذه الكلمات وكنت أستمع باهتمام إلى أمى واندهش كيف تحسن التغيير عن نفسها وعن غيرها وتجد الكلمات المناسبة. وأحسست أننى تعذبت كثيرا لأننى لم أجلس إلى أمى وأضع رأسى على صدرها. ولكنى كنت أضع رأسى وأسمع دقات قلب أمى وبس وأحيانا أنام..

وعادت أمى تستأنف الكلام المرتب اللطيف فقالت : لازم اضحك.. فى يوم أنت رجعت البيت والدماء على وجهك فانزعجت ورحت أبحث عن قطن وكولونيا. ورحت أغسل وجهك وأجفف الجروح وأنت لا ترد ولا تصد ولا تقول شيئا فأغضبتنى فانهلت عليك ضربا وأنت لا تبكى أبدا.. بل أنا التى كنت ابكى وأنت الذى ترجونى ألا أبكى وأنك لن تعود.. وعرفت منك أنك رأيت الثعلب يصعد النخلة بظهره من شدة الحذر فحاولت أن تقلد الثعلب فوقعت أكثر من مرة. ولما حاول الأولاد زملاؤك فى المدرسة أن يضعوا لك البن فوق الجروح كما هى العادة فى الريف. رفضت. ولكنك هذه المرة لم تجمع ملابسك. وإنما فوجئت باختفائك أياما من البيت وبحثت عنك فى كل مكان وسألت عنك عند خالاتك وعند أصدقائك وسألت أختك ولكن أحدا لا يعرف.. وفى يوم جاءت الغجرية التى تبيع الملابس بالتقسيط وطلبت إلى الطفل الذى يحمل لها القفة أن يضعها فى الأرض. وكانت المفاجأة أنك لجأت إلى الغجر وأقمت بينهم

ووعدت إحدى البنات بالزواج. وشربت دمها وشربت دمك.
وحاولت الغجرية أن تتمسك بك.. ولكننى طردتها ولم تعد تجئ إلينا.. ولما سألوك عن أهلك قلت لهم أنك تائه ولا تعرف احدا فاستراحوا إلى أنك مثلهم تائهون لا مكان يستقرون فيه.. وأنهم مطرودون من كل مكان لأنهم يسرقون الدجاج ويخطفون الأطفال.. وقد خطفوك وزوجوك هاها.. هاما..

***

هكذا كانت أمى قوية شجاعة عندها رأى ولها موقف وقرارها مثل موقفها نهائى وكنت أعجب بأمى كثيرا وإن كنت لا أعرف بالضبط ما الذى يجعلها تقول: لا.. وتقول:نعم

والكلمة كلمتها والقرار لها.. لم أسمع أبى وأمى يتناقشان أو يتحاوران أو يتخانقان كل ذلك من وراء أبواب مغلقة بعيدة عن أذنى وعينى ولذلك فالعلاقة بين أبى وأمى خاصة جدا بعيدة عنى جدا..

لم أتهم طول حياتى قلق أبى وأمى على فأنا تلميذ مجتهد وليست لى مشاكل ولا مطالب من أى نوع وراض بأى شئ.. أى طعام.. أى شئ أى مكان أنام فيه.. أذاكر فيه. وكل ما تسألنى أمي: تحب أجيب لك إيه أقول: ولا حاجة.

كنت أرتدى أحذية وملابس إخوتى الأكبر منى ولم ألاحظ إلا مرة واحدة أننى خرجت فى بدلة إخوتى وحذاء أخى لم أشعر ولكن أجد زميلا من التلامذة ينبهنى بسخرية أضحكت بقية الزملاء وكانت مشكلة ماذا أصنع ولم أجد ما أصنعه فذهبت إلى المدرسة فى اليوم التالى وقد حشرت جوربا فى مقدمة الجزمة حتى لا تتحرك قدمى وحتى لا تفك قدمى من الجزمة..

وإن كان قد حدث ففى إحدى مباريات كرة القدم فى المدرسة كنت أضحوكة المدرسة ورثائها فى نفس الوقت قدمت الكرة طارت الكرة والجزمتان.. من الذى لا يضحك فى هذا اليوم ولم يطل الضحك فأنا تلميذ متفوق وألقى احتراما من الأستاذ وحقدا من الطلبة.

وعدت حزينا إلى البيت ولم أقل شيئا.

هل لأنهم يرون شيئا مختلفا فيّ وبينهم - أما لا شئ مختلف إلا أننى مجتهد وليست لى مشاكل من أى نوع.. ولا أذكر أن أبى أو أمى قالا لى مرة: توضأ.. صل.. ذاكر.. اقرأ.. اكتب.. افعل ذلك وزيادة اعمله وأضيف إليه مزيدا من الدراسات والتساؤلات بعد وصرت وأنا صغير علامة استفهام وصرت بعد ذلك علامة تعجب..

والآن أنا أحاول أن أضع نقطة فى نهاية سطر فى حياتى ولكن الشعور لاينتهي والكلمات تسبقنى إلى النهاية بلا نهاية والحمد لله على ما وهبنى من الصبر الجميل واحتمال كل ما هو أفضل ومن أجل أن أعرف يهون كل شئ وأى شئ..

عندما انتهت الامتحانات سألنى أبي: الأول إن شاء الله قلت:

إن شاء الله وتحصل على مرتبة الشرف الأولي: إن شاء الله.

ويسكن أبى ممدا فى فراشه ويتقلب ويعود لوجهه المضئ وعيناه الخضراوان وصوته الجميل ويقول متى إن شاء الله..

ويضع يده على رأسى ويقول: اللهم بارك لنا فيما أعطيت.. وفى اليوم التالى ذهبت إلى والدي.. وياليتنى ما رحت ولا جيت.

وجدت أبى نائما ولكن لم يكن يشعر بى حتى اعتدل فى السرير

وبخفة دمه اقترب منى وقال: خير إن شاء الله فقلت الحمد لله يا بابا..

- الأول

- نعم

- مع مرتبة الشرف الأولي

- نعم

- الحمد لله

- ومات أبي.

يعنى إيه مات؟ يعنى أعمل إيه يعنى إنه لم يعد هناك أحد اسمه أبى ولا يتردد لأنه تردد على هذا المكان.. إنه بيت أحد إخوتى أذهب هناك فلا أجد أبى ولم يكن هذا هو السبب الحقيقى فإن أخى هذا لم يفلح فى أن أجده فجاءت الوفاة تضع نهاية تصيبنى ولكن ماذا بعد ذلك؟

الباقى الذى لا اعرفه قد تولاه أخى وربما أمى لا أعرف فلم أمش فى جنازة أبى لماذا؟ لا أعرف ولكن قررت ألا أسير.. وأحسست كأننى مقسوم ثم أصبحت قوساً فقد وقعت وأيدى عاجزة، عن أشياء كثيرة عن عمل شئ وهل يستطيع أحد أن يعمل شيئا أمام الموت.

ولا أعرف كيف ولا أين دفنوه ولا من كان فى الجنازة، هل أبى مات.. أنا أول من رآه وأول من اختفى عنه ولم أجد فى عينى دموعا رغم حزنى عليه وصدمتى فيه؟ أين الدموع؟ أين مظاهر الحزن؟ هل كنت كاذبا عندما أذكر دائما أن أمى وأبى مثال رفيع فى الصبر والسماحة والإيمان العميق بالله والحب العظيم للنبى صلى الله عليه وسلم أبى اسمه محمد

لأنه أكبر إخوته وهى عادة مصرية أن يكون الأول اسما من أسماء النبي: محمد.. احمد. مصطفي.. طه.. عبد الرسول.. عبد النبي..

وفى البيت لا أمى سألتنى ولا أنا سألتها ولا معنى للسؤال فالأب مات والزوجة بلا زوج بلا عائل ومفروض أن أكون العائل كيف؟ مش عارف ما الذى أعمله فورا والآن.

استطاع أخى الأصغر أن يحل هذه المشكلة ويعمل وينفق علينا أنا وأمى ونعمة كبيرة جدا لم أنسها له ولأولاده وأحفاده من بعده.. ولكن ما الذى اعمله..

فى ذلك الوقت كنت حائرا وقد تلخبط كل شئ.. أساتذتى يريدوننى أن أبقى فى دراساتى الفلسفية وكيف؟ وأمي؟ وأنا لا أعرف وأخاف واحدا أن أفقد أمى من الضياع.. ولا حاجة لى وقدرة على تحمل أن تعود أمى إلى بيت أبيها فلم يعد لها بيت.

وعرفت معنى المثل اللاتيني: الحجر المتحرك لا ينبت عليه العشب.. لا العشب ولا أى شئ آخر وكنت هذا الحجر المتحرك وكانت أمى تربط هذا الحجر من حين إلى حين بالحكايات والروايات والقصص والخرافات وكنت أصدق كل ما تقوله أمي.. ورغم دراساتى الفلسفة والسبيل فى شئ طريق طويل إلى اليقين حتى كانت تقول أمى هذا اليقين دون شك..

ومن نصائح أمي: لا تكلم البنات.

لا تلعب مع واحد يشرب سجائر.

لا تصدق كل ما يقال لك من السيدات جاراتنا واقاربنا وإذا تكلموا

عن الزواج فلاحظ أنك طفل وأنك لا شئ فاسمع من هنا واترك ما تسمعه.. يخرج من هناك..

فلا أقترب من الناس ولا الصبيان هناك محاذير حفظتها ولم تر أقصى أبى منها فكل ما يحدث يقتضى ذلك بل أن أمى كانت تصف سلوكى بأننى مثل البنت اضع رأسى فى الأرض ويحمر وجهى ولا أقول شيئا وكنت أفعل ذلك.. هل أنا أفعل ذلك وأمى لاحظت أم أن أمى قالت النصيحة وأنا أسمع النصيحة ؟..

فأنا أدرس الفلسفة وأتأمل كل شئ فى الله والكون وألوانه والنبى والحياة بعد الموت والبعث والنشور، داخل شأنها بعيدا عن الإيمان ولكن فى أعماقى ما تقوله أمى وهو أقوى من اليقين.. فى سن متأخرة بدأت أصدق وأؤمن على كل ما قالته أمى السيدة الأمينة الطيبه الجميلة.. أجمل خلق الله نعم.

لقد تعرفت وما يحدث بى بعد وفاة والدى ماذا حدث؟ تعبت فى حياتى، تتسرب الحياة.. وإذا كانت حياتى فضاء من الماء يبدأ الماء يتسرب.. إلى أين؟ ولماذا؟ بل إن ثقبا بدا فى وجودى كله ولابد أن أملأ هذا الفراغ..

ولم أطاوع أحدا..

ذهبت إلى صديق خريج قسم الفلسفة أزوره عرض أن اعمل صحفيا ولا أعرف يعنى إيه صحفى وكل ما أعرفه هو أن أكتب قصصا أو أترجمها وأنشرها.. فوافقت فورا..

وتناوب اساتذتى يسألون:

ـ د. عبد الرحمن بدوي: اسمه فى دراسة الفلسفة..

د. لويس عوض خليك مع بدوي

وأستاذى دكتور شوقى ضيف هو أول من قال إننى سوف أكون شيئا مهما والبقية معروفة فى كثير من كتبى وفى مقالاته هو فقد طلب منى وكنت فى السنة الأولى بحثا عن الشاعر أبى تمام فكتبت ولا أزال أذكر عنوانه: (الذاتية والموضوعية فى شعر أبى تمام) وجاء موعد توزيع الأبحاث فسأل: من هو الطالب الذى نسى أن يوقع باسمه على بحث عن الذاتية والموضوعيه فى شعر أبى تمام فرفعت يدى وطلب منى أن أقرأ بحثى على زملائى وقال: أتوقع لك مستقبلا عظيما!

ولما حصلت على جائزة الدولة التقديرية سنة 1990 كتب د. شوقى ضيف مقالا فى الأهرام ذكر فيه بأننى سوف أكون شيئا.

ولم يخطر على بالى أبدا أننى سوف أكون مشكلة للدكتور شوقى ضيف فقد رشحت سنة 1991 لجائزة مبارك فى الآداب والفنون وتساوت أصواتنا واحتجبت الجائزة لأول مرة ولما أعيدت على أستاذى د. شوقى ضيف وكتب يقول إنه سعيد أن يتفوق عليه واحد من ابنائه!

***

لقد ابتعدت كثيرا عن الحديث.. كان فى أعماقى رغبة كبيرة أن أبعد عن وفاة أبى، أنا لا أعرف ماذا جرى، أبى كان مريضا؟ نعم عنده سكر ومضاعفات أخرى ما هى؟ لا أعرف! وكان مصاب بإغماء السكر ولا يقول وكان أبى أقل تأوها من أمى إما لأنه الرجل

أما خجلا من أمي.. أو حرصا على عدم إرباك حياتى أكثر لأن حياتى قد ارتبكت تماما ولا أعرف كيف مضيت. يوم حدوثها - ولكنها متوقعة كنت أتوقعها - أكذب لو قلت كنت أبدا دائما ما صدفت حياتى حتى حياتى هذه لا أعرف ما هى . ما هى حياتى اين حياتى هذه.. من البيت للجامعة ومن الجامعة للبيت لا أرى ولا اسمع ولا اتكلم اعمي؟ نعم. أطرش؟ نعم. وهل هذه حياة؟ هذه حياة حياتى وأندهش للذين يقولون أنهم خططوا ودبروا وسارت حياتهم من أحلامهم.. لا أستطيع أن أمضى فى ذلك لأننى لا أعرف كيف تكون وفى نفس الوقت لا اصدق ولا يهم أننى صدقت أو لم أصدق ولكن إن كانت هذه حياة فهى مثل حياة الكلاب الضالة فى الشوارع والدجاجة وكثير من الحشرات حياة والسلام، فما الذى كان ينقصنى؟ لا أعرف ما الذى عند الناس وليس عندى، لابد أن لديهم ما هو أكثر وأنا لا أعرف ولو عرفت فما الذى أصنعه ولا حاجة أنا راض بكل ما عندى وهو قليل ولا أعرف أنه قليل أو كثير أنا اجلس ويجئ طعام لا أعرفه وتمد يدى التى لا يراها وهى تدخل فمى ويذهب الطعام وأخرج إلى الجامعة وفى الطريق لا رأيت ولا سمعت ولا لاحظت أننى أخوض جهنم ليلا ونهارا وطريقى إلى البيت فى مدينة إمبابة يمر بأفران الفول . ويخرجون منها ترابا اسود كالفحم إذا سرت فوقه انكشفت نار تكون مخيفة فى الليل ولا يطمئن إلا صوت قلب من بعيد جدا ويدهشنى أنه سمعنى رغم المسافات التى بيننا ولكن هذا ما يحدث كل ليلة ولا عرفت طريقى ولا شكوت ولا مللت أنا الذى أوقفت هذه المشاعر أوقفتها عند صرختها فإذا كان لها حد فما هو حدى؟ أنا لا حد لى فى أى مكان أنا ولا حاجة.. أدخل البيت ولا حاجة وأخرج ولا حاجة وأعرف أننى عند أمى حاجة كبيرة.

ولكن ما هذه الحاجة؟ الحب - الاحتياج لا أعرف لم أفكر ولكنى

لابد أن أنفصل عن أمى وأخفيها أمامى بعيدا وأتأمل وأقول واتصور ولكن أمى ليست بعيده فأنا اسمعها ولا أراها ولا أسمعها.

أو أسمعها حتى لو لم تتكلم..

لقد ابتعدت كثيرا جدا عن فجيعتى فى أبى..

وعملت ليس فى صحيفة واحدة بل فى عدة صحف فى وقت واحد وكنت أعطى أمى مجموعة مرتباتى واكتفى بخمسة جنيهات أفطر وأتغدى وأتعشى بها إلى نهاية الشهر..

وليس مبلغا قليلا فى ذلك اليوم وأمى تسألني:

ـ يا ابنى وانا ماذا أعمل بهذه الفلوس.

وأقول لها:

ـ وأنا أيضا لا اعرف!

وتسكت فى إقناع أخى الأصغر أن يتوقف عن العمل وأن يكمل دراسته..

لم يكن أبى معى طول الوقت.. فكان غيابه نوعا من الموت بعيدا عنا. فلما اقترب مات نهائيا.

فأنا لم أكن أتوقع موت أبى في يوم، فلا أعرف له نظاما ومواعيد وإنما أفاجأ به. ومهما غاب لا أسأله، لابد أن يغيب. وإذا جاء لا أسأله إن كان سيبقى يومين أو ثلاثة لأنه لابد أن يغيب. فكأن فقدانه لم يكن صدمة لي. .

وسارت بنا الحياة بغير أب.

ولم أعد أرى أبى إلا فى المنام. وأشعر به وأسمعه بوضوح وهو

يقول: لا تخف يا ابنى سوف تنجح.. لا تخف يا ابنى الذى عندك ليه مرضا، لا تخف يا ابنى فالله حارسك وصاحبك.

وفى المنام يقول أبى ما لم يقله فى حياتنا. هل هو الذى يقول أ أنا أقول على لسان أبى. وكان يسعدنى أن أرى أبى فى المنام وأتمن لو أستطيع ذلك كل ليلة. بوضوح رؤية أبى كانت رؤيا فانا أر بوضوح واسمعه بوضوح وأنهض من فراشى سعيدا طول اليوم..

وكان أبى يصحو قبل الفجر يتوضأ وله دعواته صوت جميل. ويتوضأ ويؤذن أمى البيت للصلاة. وأنا أصلى وراءه. ولا أحد من اخوتى وأحيانا الجيران يعرفون ويسألون إن كانت الصلاة جماعة ممكنة طبعا اهلا وسهلا.

وبعد الصلاة يضع أبى الشاى بالنعناع اجمل وألذ مشروبات الحياة. وبعد الشاى يسألنى أبي: أين وصلت فى حفظ القرآن. فأقول له. ويقول اسمعنى وعلى مهلك يا ابني. استعذ بالله وابدأ..

أقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم باسم الله الرحمن الرحيم: "كهيعص ذكر رحمة ربك عبده زكريا".

ويصوب النطق ومخارج الكلمات. ثم روى لى شعرا ويكرره حتى أحفظه وراءه.. كما حفظت القرآن حفظت (البردة) للبوصيرى ونهج البردة لشوقي. والهمزية النبوية. وغيرها من الشعر. وأنا لم أعرف بعد القراءة والكتابة. فلما عرفت انتقلت إلى ما لا نهاية له من الكتب القديمة والحديثة.. أسحبها تحت السرير ويطلع النهار وأنا نائم فوقها أو تحتها ويضحك أبى وأمي.. وأنا أيضا!

صندوقي الأسود 12

جاءتنا إحدى قريباتى كانت فى القاهرة تزورٍ أهل البيت. وبدا لها أن تبيت عندها، وكثيراً ما تفعل ذلك أمى مع قريبات لنا. وهى التى تمسك بهن، وتكون سعيدة أن تخرج وتدخل وتطبخ، ويتغير كل شيء.. أماكن الترابيزات والكراسى ويظهر الشوك والملاعق أحسن من التى نستخدمها وتتغير رائحة البيت وأصوات بوابير الجاز كأنها قطارات تخترق البيوت، والماء يغلى هنا.. ويغلى هناك، وتحلف أمى ألا يشاركها أحد فى إعداد الطعام.

وكلهم يؤكدون أن أمى أستاذة فى الطبيخ وأنها تستطيع أن تقدم طعاماً لعشرين أو لثلاثين، فكذلك كانت تعمل وحدها فى بيت جدى فى الأعياد عندما يجيء عشرات من الناس نساء ورجالاً وأطفالاً.

كل شيءٍ كان جاداً.. الكلام والسلام والطعام.. والتى تجمع سعادة وابتهاجاً هى أمي، وهى سيدة كريمة تحب الناس فأحبها الناس.

وجاء الليل وبدأت عيوننا تقاوم..

وذهبت الى فراشي وعدت بسرعة لقد وجدت فتاة فى فراشي.. ويبدو أن الصغيرة قد لاحظت اضطرابى وأنا أقول لأمي.. وقالت: زى أختك الصغيرة خدها فى حضنك يا ابني.

فى حضني؟ وأنام فى فراشى مع فتاة صغيرة؟!

هذا أكبر من احتمال أمي، وبسرعة قالت أمى وضحكت البنت ووضعتها فى سريرها هى بنتها. ولكن الفزع والرعب والأسى الذى ظهر على أمى كسماء تلبدت.. اسود واخضر القمر، ولم يبق من قوى الطبيعة إلا العواصف. وعصفت بكل جميل ولطيف وعزيز فى تلك الليلة. وحاولت الطبيعة أن تخفف عن أمى رد الفعل العنيف فقالت لها: والنبى يا ست أم صلاح كل الناس يحبونها.. وهم عيال ياخدوها بالحضن.. أختهم كلهم.. وربنا يحميها ويسترها قادر يا كريم.

وكأن أبى لم يسمع كلمة واحدة. بل لم يسمع فعلاً وقال لها: إزاى نسيت البنت فى حضنى ده وده.. أليست كبيرة ودول شبان.. والشيطان شاطر.

وتقول السيدة: عيلة عمرها تسع سنين يا ست أم صلاح.. عيلة ، دول كمان عيال. مفيش خوف!

وكأن أمى لم تسمع ولا كلمة وقالت لها: ازاى تعمل حاجة زى كده.. مفيش حد عيال.. كلهم كبار عارفين كل حاجة.. نار جنب بنزين أنت جرى لك إيه.. أنت نسيت حكاية ابن العمدة

مع بنت شيخ البلد.. كان عندهم ثمانى سنوات لما قامت الأم بالليل.. وحصل اللى حصل.. وكانوا عيال. أعوذ بالله. يا ساتر يا رب.. مالكيش حق أبداً.

دخلت فوجدت أستاذا معها قد جلس على مقعد فى غرفة الضيوف "غرفة الجلوس" يقرأ القرآن، وبالقرب منه جلست أمي وصديقة لها.. وواحدة ثالثة أمسكت البخور وراحت تلف الغرفة.. وكلما نقص دخان البخور أشارت أمى أن تزيد البخور.

وختم الرجل قراءته وسلمِ وخرج. ونظرت إلى وجه أمى تتساند مما يدل على أن شيئاً قد وقع وهذا القارئ لهذا السبب. ولكى تجئ جاراتها وشرحت لى أمي: المرحوم.. أبوك أوصانا ألا نقطع القرآن من البيت.. لابد أن يكون هناك مصاحف فى كل مكان. فى كل غرفة وأن يجيء من يقرأ القرآن من حين الى حين.. والمرحوم ترك دى يا أنيس إنها آية الكرسى منقوشة على فضة.. علقها فى رقبتك.. وصيته ووصية الميت واجبة يا ابني.

***

مات أبى وعاشت أمي..

وكانت ضحكة أمى حلوة إنها تضيء وجهها الجميل.. إنها تضحك بكل خلاياها.. وتمنيت أن أراها دائماً تضحك كذلك. ولكن من النادر أن تضحك أمى أو تجد ما يبعث على الضحك.

ـ آدى يا سيدى كل الحكايات اللى أنت عاوز تعرفها.. عاوز

إيه كمان! أقول.. بنت خالتك كانت بتولد.. وكانت على مقعد له فتحة.. فالطفل ينزل من هذه الفتحة عندما وجدنا صراخاً تحت السرير فوجدناك تسللت لتعرف ماذا جرى هنا فلما رأيت الطفل قطعة من اللحم الأحمر ونزل يصرخ هو الآخر أصابك الفزع فأنت يا ابنى عاوز تعرف كل حاجة.. وده مايصحش يا ابني.. ولكن هذا ما حدث.. هاها.. هاها.

قلت فى نفسى الله على صوتك يا ماما.. ما أجمل صوتك ما أحلى صورتك ما أدفأ حضنك.. ربنا يخليك يا أمى قولى يا ماما..

ـ أقول إيه يا ابنى بس..

ـ قولى كل حاجة يا ماما..

ـ والله يا ابنى مش عارفة صح ولا غلط أنك حفظت القرآن الكريم.. لأنك بعد أن حفظت القرآن لم يعد من اللائق أن تلعب مع زملائك. لأن كل واحد يراك تلعب يقول لك يا ابنى أنت حافظ القرآن وتلعب فى الحارة حرام يا ابني.. وإذا تشاجر زملاؤك سألوك لأنك حافظ القرآن ولن تكذب.. وكان أصدقاؤك يغتاظون لأنك قلت الحقيقة والناس يصدقونك ويكذبونهم.. وفى مرة جلست فتاة ومعها فتى من قرية مجاورة تحت الشجرة يتعانقان.. وأنت رأيت المشهد وسألوك فقلت: نعم رأيتهما.. وكان من نتيجة ذلك أن فسخت خطبة البنت على ولد آخر.. أما هذا الولد فضربوه وكسروا ذراعه التى بترها الأطباء بعد ذلك.. وأشفقت عليك يا ابني.. فلن يكون لك أصدقاء مادمت لا تكذب. وأنا التى تشاجرت مع والدك ووصلنا إلى الطلاق. هو يريدك أن تكمل تعليمك فى الأزهر

مثل عمك.. وأنا رفضت رفضاً تاماً.. فأنا أريدك أن تكون مثل قريبى إبراهيم باشا عبدالهادى أن تكون وزيراً.. لابد أن تكون وزيراً.. وجاء ترتيبك الأول فى التوجيهية وفى مسابقة الفلسفة فدخلت كلية الآداب قسم الفلسفة مجاناً بسبب تفوقك ولا أعرف ما الذى سوف تعمله بالفلسفة هذه. ولا أعرف ما هى الفلسفة.. إننا نشتم الناس ونقول ملعون أبو الفلسفة.. بلاش فلسفة بقى إنها شيء وحش يا ابنى ولكنك أنت اللى اخترت وربنا هو اللى اختار لك هذا المصير.. وفى يوم طلب منى بابا أن أرتدى ملابسى بسرعة. ووقفت بنا السيارة أمام مدرستك ونزلت بسرعة. فهو أراد أن يراك تخطب خطبة الجمعة.. وأدهشنى شجاعتك وكلامك بالقرآن والأحاديث النبوية وأعترف لك بأننى تأثرت وفى نفس الوقت غضبت وحزنت فأنا لا أريد أن تخطب فى الجوامع وأن تكون مثل عمك.. أبداً.. وغضبت منك وقلت لك كيف لم تقل إنك سوف تخطب الجمعة.. ولم تكررها هاها.. قالت أنت سألتنى أقول لك آخر حكاية..

قلت: والنبى قولى يا ماما الله يخليك قولي.. والله كلامك حلو.. قولى يا ماما.

– يا ابنى أقول لك.. أهو كلام وأنت اللى طلبت مني. هاها مرة بحثنا عنك فلم نجدك فى البيت. وتولانى الرعب أن يكون شيء قد أصابك. وعند الفجر فوجئت بإمام مسجد جدك الشيخ الباز يقول إنه وجدك نائماً فى الجامع الذى به ثعابين وفئران ووجد فى يدك ورقة. ولما سألك عن سر المبيت فى الجامع حتى الصباح قلت له إنك تشكونى إليه لأننى ضربتك.. هاهاها

آدى كل الحكايات اللى عندي.. أنت مبسوط دلوقت.

قلت: جداً.. والله يا ماما كلامك حلو وابتسامتك حلوة يا ماما.. فيها كثير من البراءة والخجل مع أن الذى قلتيه لا يبعث على الخجل..

ـ أقول لك الحقيقة يا ابني.. فيه واحدة غجرية بتشوف البخت وكلامها لا ينزل الأرض.. لما اتولدت قالت لي: الولد ده جوهرة خدى بالك منه.. وخدى بالك من إخوته يحسدونه.. ويحقدون عليه وإذا كانت له متاعب فى المستقبل فسوف تكون من إخوته ومن أقاربه.. ربنا حيكرمك بالولد ده وهو أحسن من إخوته كلهم.. وهو أمانة فى يدك، والأمانة وضعها ربنا سبحانه وتعالى فى يدك.. وهذه المعانى لم تبرح تفكيرى أبداً.. وأنا على قد ما اقدر أحميك يا ابنى من عيون الناس.. وربنا يكرمك دايماً ويكون ترتيبك الأول.. ولابد أنك لاحظت أن في كل مرة تظهر لك نتيجة تترك البيت وتذهب إلى مكان آخر خوفاً من عيون الناس.. يا ابنى زى ما أنت عارف أنا مش متعلمة ولا أعرف فى مثل هذه الظروف إيه الواحد يعمل إيه. أنا باعمل اللى أقدر عليه.. وأنا سألت الغجرية عن الطرق التى أستخدمها لحمايتك من عيون وألسنة الناس قالت لى كل ما تظهر نتيجة تخليه يعمل عيان وتبخريه ثلاث مرات فى اليوم، وسوف تبعد عنه العيون والشياطين.. وقالت لى أنا حاسة عندما يكون ابنك هذا وزيراً لن تكونى هنا لتفرحى به. قلت لها: ليه؟ قالت لأننى سأكون ميتة. ولن أراه وهو يصعد لفوق.. والله حزنت يا ابني.. كأننى دعيت على نفسي.. أن تكون وزيراً وألا أكون ممن يسعدون بالنظر إليك لأننى سأكون قد مت. ربنا عاوز كده. ربنا يحميك يا ابنى لحد ما تبقى زى ابراهيم باشا عبدالهادى وأحسن منه كمان هاها..

فى يوم فوجئنا بشيء وقع فى المطبخ جريتٍ أشوف إيه.. لقيتك واقع على الأرض قد وضعت حزاماً ووضعت فى الحزام سكيناً.. ووضعت على رأسك عمامة.. وحاولت أن تخطب فوقعت بك الترابيزة وكانت إصابتك.. ولم تقل لى عن حقيقة هذا المنظر الغريب.. هاها.. لما حكيت لبابا قال لى أن الولد حيكون له شأن كبير.. فلا تخف يا ابني.. ربنا حينصفك.. وربنا يبارك لى فيك يا ابنى وينصرك على من يعاديك.. ويحميك من نفسك ومن عيون الناس.

قلت: ازاى يا ماما من نفسي.

قالت والله ده كلام بابا.. أن أخطر عدو للإنسان نفسه. غروره.. مرضه.. ضعفه.

قلت والله يا ماما كلامك حلو.. والله أنت حرمتينى من الاستماع إليك. لو عرفت أنك بالشكل ده كنت أرحت نفسى كثيراً فأنا فى حاجة إلى من نكلمه.. نحن نعيش وحدنا يا ماما.. ولا أحد يدق بابنا وإذا حدث فزعنا.. ولكننا اعتدنا على الثعالب التى تقفز من فوق السطوح تخطف الفراخ وكذلك العرسة.. اعتدنا على ذلك ونسمع أصوات الدجاج وهو يقاوم الثعلب.. ويحرس كل شيء عندنا حتى يتمكن الثعلب من خنق الدجاجة فيحملها ويقفز من فوق السطوح.. ولما وضعنا الدجاج فى الأقفاص كان الثعلب يجمع حبات الذرة والقمح فإذا أخرجت الدجاجة رأسها بادر وخنقها.. ويحاول أن يخرجها من القفص فلا يستطيع.. فيقوم بقطع القفص بأسنانه حتى يجد الفرصة فيأخذها ويهرب.. ولما أقمنا غرفة صغيرة للدجاج وجد الثعلب طريقة لاصطيادها وهى أنه يحفر تحت الجدار حتى

يصل إلى الدجاجة فيخنقها ويهربٍ عن طريق الجحر هاها.. هذا الثعلب غريب يجد دائماً حلاً لكل مشاكله.

وسألت أمي: ولماذا الفراخ يا ماما.

قالت: إن تربيتها أرخص وأنظف.

- ولكن كل يوم فرخة..

- أحياناً نضحك على الثعلب فنضع له فرخة فى قفصها وحدها.. وعندما يدخل القفص يكون قد وقع فى المصيدة.. وهنا يحدث يا ابنى شيء عجيب.. حاجة مش معقولة سبحان الله.. يحاول الثعلب أن يخرج لا يمكن لأن المصيدة قوية إذا انقبضت على ساقه. رأيت الثعلب يا ابنى يقطع رجله.. والله يا ابنى سبحان الله.. ويظل يحاول وهو يبكى أنا رأيت دموعه.. حتى يفرغ من قطعها تماماً. ويتركها ويهرب وهذا الثعلب لم نعد نراه بعد ذلك سبحان الله.. يا ابنى أنا تعبت من الحكايات.. تعبت والله يا ابنى هاها.. فاضل حبة حكايات صغيرة. مثلاً: حبك لأختك أفزعنى وخفت عليك من ابنتى خفت أنك تحبها وتشغل عن علومك.. أبداً. لا أحد يشغلك.. لا أحد.. أنت أمانة من عند الله. والحمد لله.. أبداً.. تصور أنت ابنى وهى ابنتي.. ولكن لأننى أحبك أكثر خفت عليك أكثر. وكان من الممكن أن تجيء أختك وتعيش معنا.. ولكنى رفضت وقلبى يتقطع.. وأخاف عليك من أي بنت تزورنا.. أبداً.. وأصبحت أنت تخاف من البنات أو تكرههن.. مش عارفة ولكن المهم أنك لا تنشغل عن علومك وتفوقك. أبداً لن أسمح بأى شيء أو أحد يا ابنى يشغلك أو يعطلك.. ويجيء لنا ضيوف ولكنك تظل

وحدك فى الغرفة تقرأ.. أو حتى تنام فوق الكتب واضع على ظهرك اللحاف أنت يا ابنى أخذت عنى الخوف من البرد فى الصيف وفى الشتاء..

بلاش يا ابنى احكى لك ما الذى تفعله عندما أمرض.. يا ابنى أنا لا أحكى هذا للناس خوفاً من الحسد.

يا ابنى أنا أبقى مريضة مرتين.. بسبب حزنك فإننى أمرض وبسبب مرضى أنا أحزن.

وأنت يا ابنى أنت حزين يا ابنى لا تأكل ولا تشرب وتنام إلى جوارى وأحياناً تنام على الأرض بين سريرى وسرير بابا.. فى الصباح عندما تستيقظ أرى الدموع على خدى فأجرى إلى دورة المياه وأبكى وأمسح دموعى حتى لا ترانى يا ابنى ربنا يبارك لى فيك.. يا ابنى أنت أمانة.. أنت وديعة ربنا وضعها فى قلبى وطلب منى أحرص عليك.. والحمد لله يا ابني.. وخفت عليك .

يا ابنى وضاعف هذا الإحساس من مرضى وأنت طالب فى الجامعة.. كنت مريضة وبابا أيضاً. وأنا يا ابنى تنام على الأرض بيننا فإذا قلت: آه.. ولابد أن أقول آه فإنك تصحو من أحلى نومة وتقول: مالك يا ماما.. وعاوزة أعتذر لك.. واعتدت أن أكتم عنك الآه.. وكذلك أبوك.. خفت عليك يا ابني. ولكن ربنا أكرمنا بك فكنت متفوقاً فى الجامعة أيضاً.. والناس لا يعرفون عذابك اليومى ولا أقول.. رغم أننا مريضان وأنت لا تعرف النوم ولا المذاكرة فربنا يكرمك ويكرمنا بك.. وفى يوم جاءنا ضيوف وأنت دخلت بشويش ونظرت إلى زجاجات

الأدوية المجاورة لسريري. ولم تصافح أحداً.. واندهشت إحدى السيدات وقالت: هوه بيبص على إيه.. وقلت على الأدوية التى إلى جوار سريرى ليعرف أن كنت أخذت الدواء. وقلن: ما شاء الله.. أهى دى الأولاد ولا بلاش.. شوفى حب الولد لأمه.. ييجى يتفرج على الولاد عندنا.. تقولى له اطفى النور يقول لك: ماتطفيه انت.. شوفى الأولاد.. وأقول فى نفسى من شر حاسد إذا حسد.. من شر النفاثات فى العقد. وأقسمت ألا أحكى شيئاً عن حياتنا المتواضعة.. ولكن فيه حاجة بتخوفني.. لأنك يا ابنى ترفض زيارة قبور الأولياء.. ولا تزورهم ولا تقرأ الفاتحة عندهم.. ليه مش عارفه.. ليه يا ابني؟

أنت حافظ القرآن والقرآن بيقول أولياء الله لا خوف عليهم.. وقالوا البنت النصرانية اللى بتقعد معاها فى الجامعة غيرت دينه. أعوذ بالله.. إيه صحيح يا ابني.. هيه مسيحية ولا يهودية يا ابني..

***

صندوقي الأسود 13

ماتت أمى ولقيتها فى كل ورقة كتبتها بعد ذلك فموتها كان معنى لحياة أخرى حياتي.. موتها كان موتا مؤثرا فى نفسى وعقلى وقلبى وكل وجودى.. لم يعد عندى ما أقوله فقد قلت كل ما أستطيع ولا أنا قادر على إعادة الغطاء عليها والعويل والنحيب.. لست قادرا وعجزى سببه أننى قلت وأننى بكيت حتى أغمضت عينى ولكنها هنا وهناك عند قبرها وإن كنت أحمل قبرها معى ذهابا وإيابا فهى ماتت لكل الناس.. لم تمت عندي..

ولا يصدقنى أحد عندما أقول إننى أراها كل يوم.. والله كل يوم وكل ليلة. تسألنى كيف. أراها أمامى، كيف أمامى أنا. أراها تبتسم وتبتسم لى الدنيا.. وأراها مستاءة حزينة لما يقع

مكروه وتكون كذلك واعتدت على ذلك، بل إننى أتهيأ كل يوم لعلى أراها على أى صورة، أحيانا أحسها إلى جوار الفراش وتحركه لا إراديا اسحب الغطاء ناحيتها.. ويكون ذلك إعتذارا بأننى سوف أبكي.. أبكي.. والله على ما أقول شهيد .

وانا لم أستطع أن اصدق أن هناك عالما آخر.. وحياة أخرى إلا عن طريق أمى هى التى أكدت لى أن هناك حياة بعد الحياة وأنها تعيش لا أعرف أين ولكنها تعيش وترانى وتسمعنى وتلاحظنى هذا ما أشعر به لا من حديث ولا من فلسفة إنه شعورى المباشر المؤكد الذى لا شك فيه..

عندى صورة وحيدة لأمى أراها وحدى وأنزعها من الجدران حتى لا يراها أحد غيرى ولا أنشر ولن أنشر صورتها..

ريفي؟ يجوز، أناني؟ مؤكد، مسألة شخصية جدا؟ نعم.

وماذا لو نشرتها سوف تدرك على الفور صورة تقول من أمي.. ليس الأجمل طبعا وسوف تقارن بين عيوننا وشفتيها.. أما البساطة والسماحة والصفاء والنقاء والهناء فهو وجه أمى أما أنا فلا أشبهها فى ذلك.. وإنما وجه يبدو أحيانا بلا معنى وأحيانا أنظر طويلا فى المرآة أعرف من أنا فأجد الحيرة والحزن وأجد القلق وقد أضيف إلى كل هذه السمات الموت.. فقد أمى شئ أمامي؟ .

لا أجد ما يخيفنى ولكن هناك بقايا حياة فى الريف وحدى مع أمى وحدها.. لقد ذهب الذى كان عصيبا ولكن الخوف باق فقد اعتدنا فى الريف أن تقفز الفئران والعقارب والثعالب تخطف

منا الدجاج والبط ويكون لها صوت وبكاء وللكلب نباح وبكاء كل ليلة.. وفى الصباح نجد بقايا.. لقد قفزت الثعالب وحطمت الموانع الخشبية وقطعت الحبال وذهبت بالدجاج بعد أن شربت البيض..

ولم يجرؤ يوما على أن ننهض من الذئب الذى نحاول الدفاع عن الدجاج وإلتهام كل ما فيها رغم أن النوافذ مغلقة تماما والأبواب.

مرة واحدة نهارا.. دخل السبع وتسلل من الحديقة حول البيت إلى فراشى مع شمس الشتاء فجاءت أمى فوجدت إلى جوارى ثعبانا قد تمدد والتصق بجسمى هى التى تقول، وقد رأيت اللحظات الأخيرة من هذا الموقف المرعب..

فجأة وجدت أمى قد ألقت بالبطانية على السرير وضعت البطانية على الثعبان وراح يهرب منها ويطاردها عندها سحبتنى أمى فوق السرير..

وفى ذلك اليوم خرجت وعادت مع رجل كان يبيع الفجل والجرجير عند نهاية الشارع قالت لي:

رفاعي.

ولم أفهم.. فقالت: إيه انتظر لإخراج الثعابين من البيت.. إننا نأتى له بكوب من الماء نضع الماء فى يده ويقرأ.. ثم بيده إلى الكوب ثم يلقى الماء فى جدران الغرفة وبعد ذلك معه ناى ينفخ فيه فإذا الثعابين كلها تخرج من الشقوق..

يعنى أن البيت مليء بالثعابين.. شئ مخيف وجاء الرجل

وراح يصب الماء مرة أخرى فى كل الغرف.. ثم جلس فى منتصف الغرفة بالضبط.. الرجل عنيف أصفر اللون ونظره ضعيف.. وظهرت الثعابين الواحد وراء الآخر.. وكلها تقفز إلى حجره ومن حجره يضعها في جورب معه.. يمسك الثعابين فلا تعضه وحتى لو عضته فإنه أخذ العهد عليها رجل رفاعى أخر فالثعابين لا تعضه وسمها لا يؤذيه..

سبعة ثعابين فى غرفة واحدة.. وثلاثة فى غرفة أخري.. وخمسة فى غرفة ثالثة أما حوش الفراخ فقد أخرج منه ثعبانا طويلا قاتم اللون إنه الثعبان الذى تمدد إلى جوارى وصرعته القطة واكلت أكثره والباقى التف عليه النمل ونشره رمادا ونقله إلى جحور فى كل مكان..

فكيف لا تخاف..

لما جلست بالقرب من الدجاج ومن الثعابين بقى الخوف.. الخوف من أى شئ سيجئ أو لا يجئ أن الخوف قاعد جاهز لكى يكون مقرا لأى شئ.. واستقر الخوف إلى مداه القلق والأرق والأسى والحزن.

- وهذه حياتى بالقلم والورق..

أمى - أستأذنك فقد حان موعد ومكان غطائى أطوى الورق وألقى القلم وأغلق الباب والشباك وأضع المنديل على فمى حتى لا يشمك أحد.

على عينى وعلى أنفي..

وانتشر المنديل بعد ذلك ستارا أسود قاتما على ما تبقى من حياتى .. وليس سرا أن تموت أمى ولا هو خبر إنه حقيقة

والحقيقة الوحيدة فى حياتنا فالموت كما يقول الفيلسوف الوجودى هدجر.. الموت فعل يوحى عن كل فعل.. والموت شخصي.. الموت عام.. شخصى لأننى أنا بعضه الذى يموت ، وعام لأننا كلنا سوف نموت والموت ليس نهاية... فأمى ماتت ولا أزال أقلبها كأنها مريضة وأنا الذى أستدعيها وأسترجعها وأستضيفها.. إننى دفنتها بيدي.. دفنتها هناك بيدى.. دفنتها هناك فى الأرض وهنا فى وجودي.. أما فى الأرض.. فلا أعرف لها شيئا، قد فتحت قبرها من ثلاثين عاما فوجدت قطعة من العظم أما فى نفسى فهى كاملة الأوصاف..

ضاحكة وحزينة.. ولا تقول وأفسر أنا كل شئ.. وأمى ليست معى لأنها لم تمت.. وأمى ليست عندى، لأنى أسمع همسها مدويا فى كل ما هو أنا..

وكما ترى أريد أن أتحدث عن موت أبى فيعترضنى موت أمي.. أريد أن أحيى ذكراه فقط هنا أتحدث عنه.. فما الذى حدث له ولها ولى لم يحدث شئ سوى أن أمى كانت فى حياتها كل شئ لي.. أصبحت من بعدها كل شئ لي!

***

ماتت أمى وأنت تعرف ذلك ويخيل لى دائما أنك لم تعرف بدرجة كافية فأحدثك عنها ناسيا أن هذا لا يغنيك ولا يقدم ويؤخر.. ولكن يعنينى ويقدم ويؤخر ويحيى ويميت.

سألت كثيرا من الذين يشتغلون باستدعاء الأرواح.. عن طريق الجلسة التى كتبت عنها سنة 1960 فانتشرت فى

مصر والعالم العربى ولكن الجلسة أنها مشغولة بي·· وانها تقول لي:

- لا تخف يا ابنى اصبر مهلا كل شئ سوف تجد حلا لا تخف··

وسألت الذين يتقدمون جلسات استحضار الأرواح تبدأ الجلسة.. من معكم الآن؟ اسمها كذا لاحظ اننى لم اكتب اسم أمى ولن أكتبه فأقول: أنا·· فيقول: إنها تقول إنها سعيدة لرؤيتك وهى لا تستطيع أن تظهر وحدها وإنما لابد من وجود أناس يعرفون شيئا لا أعرفه ساعدنى على أن أتعلم وأن يكون كلامى واضحا - أنا سعيدة يا ابنى اللى بشوفك ..

- عاوزة حاجة؟

- يا ابنى الباب بتاع الضريح مفكوك·· حاول تصلحه يا ابني··

وأذهب إلى الضريح وأجد الباب فعلا قلقا من موضعه··

وفى إحدى زياراتى للهند كان لابد أن أرى هؤلاء الذين يستخدمون الأرواح - الشياطين العفاريت الملائكة البشر - سألته قال لي:

- هذه السيدة لم تظهر عندى من قبل ولكنها لا تريد أن تتكلم معك· فالبيت خانق والدنيا حارة وهى تريدك أن تعود إلى الفندق بالسلامة؟

وفى طريقى إلى مدينة (تاج عسل) الهندية اعترضنا رجل يمسك الأفاعى فى كيس من القماش وقال لي:

- هات دولارا وأنا أعمل لك معجزة.

- معجزة

- نعم معجزة وإذا لم تحدث سأعيد لك الدولار ما رأيك؟

- موافق

- هل تحب أن أكتب اسمك؟

- ولماذا اسم إيه؟

- هذه معجزة فأنا لا أعرف من أنت ولا من أى بلد ولا أعرف أمك ولا اسمها..

قلت :

- موافق..

وأخرج الثعابين من الكيس وراح ينفخ فى الكيس ويبعثر على الكيس رائحة الثعابين شكلا غريباً فقال انتهوا:

- اقرأ هذا اسم أمك.. والحروف إنجليزية كما تري..

فعلا كتبت اسم أمي!

***

وماتت أمى يرحمها ويرحمنى الله ..

الله لاتمتها مادمت حيا فهى حياتى وهى مماتى دعنا يارب نموت معا كما عشنا معا وقد كنت حياتها..

أما فهذه حياتى وهذه أمنياتي..

ولم أترك أحدا يعيش بى أو يموت بى أو من أجلي··

إننى نهاية السطر··

آخر نقطة فى سطر حياتى .

أنا البداية بدايتى وأنا النهاية··

نهاية

أمي

وابنها!

***

(أ) ترجمة ذاتية :

١ - في صالون العقاد .. كانت لنا أيام
٢ - عاشوا في حياتي
٣ - إلا قليلاً ٤ - طلع البدرعلينا
٥ - البقية في حياتي
٦ - نحن أولاد الغجر
٧ - من نفسي
٨ - حتي أنت يا أنا
٩ - أضواء وضوضاء.
١٠ - كل شئ نسبي
١١ - لأول مرة
١٢ - شارع التنهدات

(ب) دراسات سياسية:

١٣ - الحائط والدموع
١٤ - وجع في قلب إسرائيل
١٥ - الصابرا (الجيل الجديد في إسرائيل)
١٦ - عبد الناصر - المفتري عليه والمفتري علينا
١٧ - في السياسة (٣ أجزاء)
١٨ - الدين والديناميت
١٩ - لاحرب في اكتوبر ولا سلام
٢٠ - السيدة الأولي
٢١ - التاريخ أنياب وأظافر
٢٢ - الخالدون مائة - أعظمهم محمد (ص)
٢٣ - علي رقاب العباد
٢٤ - ديانات أخري
٢٥ - وكانت الصحة هي الثمن
٢٦ - الغرباء
٢٧ - الخبز والقبلات

(ج) قصص :

٢٨ - عزيزي فلان
٢٩ - هي وغيرها
٣٠ - بقايا كل شئ
٣١ - يامن كنت حبيبي
٣٢ - قلوب صغيرة

(د) مسرحيات مترجمة:

* للأديب السويسري فريد ريش ديرنمات:
٣٣ - رومولوس العظيم
٣٤ - زيارة السيد العجوز
٣٥ - زواج السيد مسيسيبي
٣٦ - الشهاب
٣٧ - هي وعشيقها * للأديب

السويسري ماكس فريش:
٣٨ ـ أمير الأراضي البور
٣٩ ـ مشعلو النيران * للأديب الفرنسي جان جيرودو:
٤٠ ـ من أجل سواد عينيها * للأديب الامريكي أرثر ميللر :
٤١ ـ بعد السقوط * للأديب الأمريكي تنس وليامز:
٤٢ ـ فوق الكهف * للأديب الأمريكي يوجين أونيل:
٤٣ ـ الأمبراطور جولس * للأديب الفرنسي يوجن ليونسكو:
٤٤ تعب كلها الحياة * للأديب الفرنسي أداموف :
٤٥ ـ الباب والشباك * للأديب الأسباني أريال:
٤٦ ـ ملح علي جرح

(هـ) دراسات نفسية :

٤٧ ـ الحنان أقوي
٤٨ ـ من أول نظرة
٤٩ ـ طريق العذاب
٥٠ ـ ألوان من الحب
٥١ ـ شباب .. شباب
٥٢ ـ مذكرات شاب غاضب
٥٣ ـ مذكرات شابه غاضبة
٥٤ ـ جسمك لا يكذب
٥٥ ـ الذين هاجروا
٥٦ ـ غرباء في كل عصر
٥٧ ـ أظافرها الطويلة
٥٨ ـ هموم هذا الزمن
٥٩ ـ زمن الهموم الكبيرة
٦٠ ـ الحب الذي بيننا
٦١ ـ عذاب كل يوم
٦٢ ـ كيمياء الفضيحة.
٦٣ ـ كل معاني الحب

(و) دراسات علمية:

٦٤ ـ الذين هبطوا من السماء
٦٥ ـ الذين عادوا إلي السماء
٦٦ ـ القوي الخفية.
٦٧ ـ أرواح واشباح
٦٨ ـ لعنة الفراعنة.
٦٩ ـ وكانت الصحة هي الثمن

(ز) نقد أدبي:

٧٠ ـ يسقط الحائط الرابع
٧١ ـ وداعاً أيها الملل
٧٢ ـ كرسي علي الشمال
٧٣ ـ ساعات بلا عقارب
٧٤ ـ مع الآخرين
٧٥ ـ شئ من الفكر
٧٦ ـ لو كنت أيوب
٧٧ ـ يعيش ـ يعيش
٧٨ ـ الوجودية

٧٩ - طريق العذاب
٨٠ - وحدي مع الآخرين
٨١ - مالا تعلمون
٨٢ - لحظات مسروقة
٨٣ - كتاب عن كتب
٨٤ - أنتم الناس أيها الشعراء
٨٥ - أيها الموت .. لحظة من فضلك
٨٦ - أوراق علي شجر
٨٧ - في تلك السنة
٨٨ - دراسات في الأدب الأمريكي
٨٩ - دراسات في الأدب الألماني
٩٠ - دراسات في الأدب الإيطالي
٩١ - فلاسفة وجوديون.
٩٢ - فلاسفة العدم

(ح) رحلات :

٩٣ - حول العالم في ٢٠٠ يوم
٩٤ - بلاد الله خلق الله
٩٥ - غريب في بلاد غريبة
٩٦ - اليمن ذلك المجهول
٩٧ -أنت في اليابان وبلاد أخري
٩٨ - أطيب تحياتي في موسكو
٩٩ - أعجب الرحلات في التاريخ
١٠٠ - ماذا يريد الشباب
١٠١ - الرصاص لايقتل العصافير
١٠٢ من أول السطر

(ط)مسرحيات كوميدية:

١٠٣ - مدرسة الحب
١٠٤ - حلمك ياشيخ علام
١٠٥ مين قتل مين
١٠٦ - جمعية كل واشكر
١٠٧ - الأحياء المجاورة
١٠٨ - سلطان زمانه
١٠٩ - العبقري
١١٠ - كلام لك ياجارة
١١١ - فوق الركبة
١١٢ - هذه الصغيرة (وقصص أخري)
١١٣ - يوم بيوم
١١٤ - أنها الأشياء الصغيرة
١١٥ - إلا فاطمة
١١٦ - القلب أبداً يدق

(ي) المسلسلات التلفزيونية

١١٧ - حقنة بينج
١١٨ - أتنين .. اتنين
١١٩ - عريس فاطمة
١٢٠ - من الذي لا يحب فاطمة
١٢١ - غاضبون وغاضبات

١٢٢ - هي وغيرها
١٢٣ - هي وعشيقها
١٢٤ - العبقري
١٢٥ - القلب أبداً يدق
١٢٦ - يعود الماضي يعود

(ك) كتب مقالات :

١٢٧ - ثم ضاع الطريق
١٢٨ - النجوم تولد وتموت
١٢٩ - هناك أمل
١٣٠ - أحب وأكره
١٣١ - الحيوانات أطلف كثيراً.
١٣٢ - مصباح لكل أنسان
١٣٣ - أتمني لك
١٣٤ - لعل الموت ينسانا
١٣٥ - أقرأ أي شئ
١٣٦ - ولكني أتأمل
١٣٧ - حتي تعرف نفسك
١٣٨ الحب والفلوس والناس .. وأنا
١٣٩ - نحن كذلك !!
١٤٠ - اللهم أني سائح
١٤١ - كائنات فوق
١٤٢ - تعالي نفكر معاً.
١٤٣ - آه لو رأيت
١٤٤ - النار علي الحدود : لعبة كل العصور
١٤٥ - أنتهي زمن الفرص الضائعة
١٤٦ - هناك فرق
١٤٧ - الرئيس قال لي .. وقلت أيضاً (جزءان)

(ل) الترجمات القصصية:

١٤٨ - رواية (الجائزة) للكاتب الأمريكي أرفنج والاس
١٤٩ - (المثقفون) للأديبة الوجودية سيمون دبوفوار
١٥٠ - (لو كنت مكاني) للأديب السويسري ما كس فريش
١٥١ - (قصص مورافيا) للأديب الإيطالي ألبرتومورافيا
١٥٢ - (الجلد) للأديب الإيطالي كورتسيو ملبارته
١٥٣ - (الجيل الصاخب) للأديب الامريكي جينز برج (م)

التر جمات الفلسفية:

١٥٤ - الفلسفة الوجودية الألمانية - لإميل تسلر
١٥٥ - الفلسفة الوجودية الفرنسية - لجان جاك رسو
١٥٦ -معني العدم عند هينجر وسارتر - لجانيت أردمان
١٥٧ - مسرح العبث الفرنسي -

لاتيان ماريبو
١٥٨ - الفيلسوف الروسي بردياتف - لفيكتور لوزتسيف.
١٥٩ - من كيركجور إلي مارسيل - لأنطوان بابيف
١٦٠ - سيمون دبوفوار تلميذة رصينة - لفرنسواز روسلان
١٦١ - رسائلها إليه - لفرانسواز روسلان
١٦٢ - فاشلون لكن نبلاء - لجان ماري روار
١٦٣ - ما الميتافيزيقا؟ - لمارتن هيدجر
١٦٤ - الوجودية فلسفة إنسانية- لجان بول سارتر
١٦٥ - فلسفة حنا أرنت - تلميذة للفيلسيوف الألماني مارتن هيدجر- لأدم برجاشتاين.
١٦٦ - كروتشه فيلسوف الحرية - لايرابيلا دلورنتس

(ن) مؤلفات أخري :

١٦٧ - مواقف ١
١٦٨ - مواقف ٢
١٦٩ - مواقف ٣
١٧٠ - علي سفر
١٧١ - عندي كلام
١٧٢ - معني الكلام
١٧٣ - قل يا أستاذ
١٧٤ - الكبار يضحكون أيضاً
١٧٥ - أنت عنيف وأنا أيضاً
١٧٦ - قل يا ليل
١٧٧ - أنها كرة الندم
١٧٨ - الناي السحري - موتسارت
١٧٩ - شبابنا الحيران
١٨٠ - لعلك تضحك
١٨١ - تولد النجوم وتموت
١٨٢ - لو جاء نوح
١٨٣ - كيف لا أبكي
١٨٤ - زي الفل أو احزان هذا الكاتب
١٨٥ - من أوراق السادات
١٨٦ - شمعة في كل طريق
١٨٧ - أكثر من رأي
١٨٨ - معني الكلام
١٨٩ - معذبون في كل أرض
١٩٠ - تعالوا نفكر
١٩١ - اللعب غريزة منظمة
١٩٢ - في انتظار المعجزة
١٩٣ - وأنا أخترت القراءة
١٩٤- من أجل عينيها
١٩٥ - صندوقي الأسود

منصور ، أنيس ، 1925 - 2011
صندوقى الأسود / أنيس منصور .-
ط1. - القاهرة : أخبار اليوم ، 2011 .
200 ص 24 x سم .
تدمك 9770815349
1 - منصور ، أنيس ، 1925 - 2011
2 - الأدباء العرب
أ - العنوان
920

رقم الإيداع
2011 / 17939
الترقيم الدولى
977 - 08 - 1534 - 9





قطاع الثقافة

أنيس منصور

صندوقي الأسود

هذا الكتاب

إختص الكاتب الكبير (دار أخبار اليوم) التي تشكَّل وتوهَّج فيها، بفتح صندوقه الأسود، وآثر اختيار (قطاع الثقافة) بالدار، وسيلته المعرفية لنشر محتوياته، حيث يقدم في هذا الكتاب الشريحة الثالثة مما تحمله ذاكرته وذكرياته ومذكراته، بسعة ٨٧ عاما * ٣٦٥ يوما * ٢٤ساعة * ٢٠٠ كتاب، وبذلك تكتمل ثلاثيته الذاتية (إلا قليلا) أكتوبر،١٩٨٣ ثم (البقية في حياتي) أغسطس،١٩٩٠ وأخيرا (صندوقي الأسود) أغسطس ٢٠١١.

وتنهل هذه الثلاثية من رؤيته التي تتجلى في قوله إن مستقبل كل إنسان في ماضيه ففي الطفولة كل الودائع، وفي الشباب كل القروض، وفي الرجولة فوائد الودائع والقروض، وعندما نتغلب على الطفولة ونحاول تحجيمها وتخطيطها لوحات تذكارية على جدران الطريق فهذه هي بداية الحرية والحكمة، من هنا ينهل الكاتب الكبير أنيس منصور، من هذه الينابيع التي لا تجف ولا تنضب، بل تلقي بظلالها على مراحل حياته المتوالية، وتحولاته المتعاقبة.

وعندما أطلق تنهيدته الصوفية ذات الذبذبات العالية (أيها الموت لحظة من فضلك..) كان يتمهل ملك الموت لينتهي من مشروع سيرته الذاتية، باستقطار ما في صندوقه الأسود الذي هو - في الأصل - السجل الصوتي من طاقم الطائرة والمطارات العالمية وكل ما يحدث في الطائرة. وفي طائرة أنيس منصور أسرار وحكايات، ونوادر وخواطر، وذكريات ومذكرات، لم تر النور بعد، كلها تبشر بمفاجآت كثيرة ومثيرة سيقدمها (قطاع الثقافة) لـلكاتب الكبير، وعنه أيضا، في الفترة القادمة، وقد بدأها بالصندوق الأسود.

أخبار اليوم

